#10

الطبعة الثانية

قصص | STORIES

اعطني اعطني القبلة

24.9.2018

ديلان توماس أنجيلا كارتر ريموند كارفر

أنابيس نن

نادين غورديمر برنارد ماك لافرتي هانز بندر

ترجمة

إلياس فركوح





قصص

القُبلة

ديلان توماس أنجيلا كارتر ريموند كارفر

أنابيس نن

نادين غوديمر برنارد ماك لافرتي هانز بندر

ترجمة

إلياس فركوح



القبلة

القبلة: مجموعة كتّاب وكاتبات

ترجمة : إلياس فركوح

الطبعة الثانية : 2016

الطبعة الأولى : 2004



أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص.ب: 950252 عمّان 11195

شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4

info@azminah.com

info@azminah.net

Website:http://www.azminah.com

منحوتة الغلاف: «القبلة» للفرنسي أوغست رودان

تصميم الغلاف : أزمنة (إلياس فركوح)

الترتيب والأخراج الداخلي : أزمنة (إحسان الناطور، نسرين العجو)

تاريخ الصدور : كانون الثاني/ يناير 2016

المحتويات

ديلان توماس

Dylan Thomas (١٩١٤ ـ ١٩٥٣)

ولد ديلان توماس في سوانسي عام ١٩١٤.

عمل إثر تركه للمدرسة، ولمدة وجيزة ، كمراسل مبتدئ لمجلة «ساوث ويلز ايفننغ بوست»، قبل أن يذهب إلى لندن ليباشر هناك وظيفة أدبية.

رسّخ نفسه في لندن وبسرعة كواحد من أهم شعراء جيله.

ظهرت مجموعته الشعرية الأولى « ثماني عشرة قصيدة» عام ١٩٣٤، و «خمس وعشرون قصيدة» عام ١٩٣٦ و«ميتات ونشوءات» عام ١٩٤٦. كما نُشِرَتْ «القصائد المجموعة» عام ١٩٥٢.

كتب ديلان توماس القصص القصيرة خلال حياته ، وكانت مجموعة قصصه الأكثر شهرة هي «صورة الفنان ككلب شاب» ـ والعنوان تقَصّدَ أن يكون على غرار رواية جيمس جويس المعروفة «صورة الفنان في شبابه» ـ .

كما قام ، بالإضافة إلى الشعر والقصة ، بكتابة نصوص سينمائية ، وأحاديث وقصص إذاعية ، وإلقاء المحاضرات في أمريكا، كما كتب كذلك المسرحية الإذاعية « تحت حشيشة اللّبَن».

عام ١٩٥٣ ، وبعد مضي وقت قصير على عيد ميلاده التاسع والثلاثين ، سقط ميتاً في نيويورك ، ودُفِن في لوغارن ، في منطقة ويلز، حيث كان يقيم لسنوات طويلة.

في الحديقة

كانت الحديقة المظلمة مصدر خوف للصبّي أكثر من أي شيء آخر في العالم . صحيح أنَّ لها رهبتها في ضوء لون الشفق ؛ لكنها وقت أن تعتم في الأعلى والأسفل وتبدأ الأشجار بالتحدث مع بعضها بعضاً ؛ تتحول الحديقة الى شيء من المفزع التفكير به .

حاول الصبّي أن يقنع نفسه بأن لا شيء أبداً هناك خلف الستائر الحمراء ، وأن لا شيء على الإطلاق في أي مكان ، سواهُ هو ، والغرفة المضاءة ، وأمه . كانت الحديقة في الصباح طافحة بالنور ، والعشب طويل ومُهمَل ، كما أن هنالك نبات عبّاد الشمس الذي لم يزرعه أحد . وفي المقابل من الجدار ثمة سقيفة الحديقة ، بيت الصراصير ، حيث يحتفظ بمجموعته من الحصى الغريبة وبطاقات صوره الشخصية . يمكث هناك جالساً طوال وقت طلوع الشمس ، سانداً ظهره الى الصندوق الخشبي على المقعد الطويل ، بينما تقف قدماه فوق صندوق ثياب قديم وغامض . لقد امتلك صندوق الثياب هذا سحراً كبيراً وذلك لأنه لم يكن يحتوي على أي شيء .

ذات مرة قام الصبي بفتح القفل الصدىء بسكين جيبه ، ورفع غطاءه بخشية بالغة ، ليجد فيه الخواء ورائحة العطن فقط . كان موقناً بوجود درج سريّ في جزء فيه حيث أخفيت حجارة كريمة لها شعاع الشمس ، وخطّط ،

عندما يكتشفها ، أن يبيع الكنز الى تاجرٍ ثري ويسافر بالنقود الى الجُزر ـ موطن الببغاوات الدائم .

لكنه ، وإثر غياب آخر إشعاعات الشمس بعيداً خلف أكداس المداخن الأكثر ارتفاعاً ، كان بوسعه سماع الأصوات المنذرة تقول له بأن الوقت قد حان لأن يعود . وكان يعلم ، بدوره ، أن في كتلة الخيالات المقتربة يقبع سُكّان ليل الحديقة البشعين . عندها؛ يغلق باب السقيفة ببطء وحذر ، ويعبر ممر الحديقة حتى يصل الدرجات الحجرية الثلاث الهابطة الى حجرة الغسيل . هذه الدرجات التي يقفزها مرة واحدة ، ثم يركض بسرعة الى داخل البيت .

كانت ليلة شديدة القيظ . النوافذ مشرعة ، والهوام اندفعت للداخل بدورانها السريع لتهز سيقانها الطويلة في وهج نور الغاز . رغب الصبي بمراقبتها طالما هي منفرشة على السقف ، لكنه كرهها عندما هوت على مفرش الطاولة أو حينما طارت بعماء نحو وجهه . والأسوأ من ذلك كله أنه كره الفراشة الكبيرة الرمادية التي تخبطت في أرجاء الغرفة ؛ إذ أنه على علم بتحالفها مع الأشياء هناك في الحديقة .

«إنها حارّة هنا» ، قالت أمه فجأة ، «انقلْ الكراسي الى المَرْجة . »

وتركته لوحده في المطبخ . أخرج كرسياً ، ثم وضعه وذهب الى حجرة الغسيل . فتح باب الحديقة ، فطارت مجموعة كبيرة من الفراشات في وجهه . بعدها ، خطا خارجاً الى الحديقة وواجه الأعداء .

محجوبون ومُغلّفون بالسواد على طول حدود الممرات ، ويقفون بين العشب . هز كتفيه وارتقى بشجاعة حتى وصل أعلى الدرجات . لم يستطع رؤية وجه الخيالات لكن بمقدورها هي أن ترى وجهه ؛ إذ كان مؤطراً بالنور المنبعث من الباب المشرع . فكرَ بسقيفة الحديقة في الصباح ، إنها ذات ألفة ، ويغبّرها النور ، وفكرَ بصندوق الثياب حيث يرقد الكنز . خرج قاصداً المنطقة العشبية ، غير قادر على سماع تحذيرات الأشجار بسبب من ضربات قلبه . وما

إن تقدم أكثر حتى انحنت الخيالات باحترام وتَنَحَّت للوراء قليلاً ، تاركة طريقه واضحاً صوب العتمة التي كانت أكثر الموجودات إفزاعاً .

ثم توقف بعدها . كان على درجة من الخوف لم تخطر له من قبل . التفتّ الحديقةُ حوله متلوّية ، بينما أغلقت الجدران والأشجار المدى الأعلى فاستحالت عليه رؤية السماء . وكذلك كانت قمة السقيفة التي انحبست بالعتمة ، فبدت مثل برج كنيسة . لم يجرؤ الصبي على النظر حواليه لمعرفته بأنه مُحاط بخصومه ، وبأذرعهم الممدودة الى ظهره . وقريباً ، قريباً جداً سوف يطبقون عليه ، مع أنهم يعابثونه ببراءة ، إضافة إلى أن أحدهم يزمع أن يلقي غطاءاً ما على رأسه . انتظر وانتظر لكنّ شيئاً لم يحدث، عدا الارتفاع التدريجي للأشجار ، والجدران ، والهيئة المغلوطة للبرج . . كلها آخذة بالارتفاع نحو السماء . هو لا يستطيع رؤيتهم ، إذ أن يديه تغطيان عينيه الآن . لقد أحكمَ إغلاق الحلقة عليه . بمقدوره سماع أقدامهم في العشب المُهمَل وانزلاق أثوابهم الطويلة على التراب الرطب .

ألقى برأسه للوراء وحدّق مباشرة في عينيّ الخيال الأكثر طولاً . حدّق لمدة طويلة ، ثم ابتسم لصديقه الخيال وعرض ذراعيه مرحّباً . تأرجح باب السقيفة في الريح ، ورأى أن صندوق الثياب هناك ، مُلقى على جانبه ومفتوح، كان مليئاً بالنار . انهمرت منه الحجارة الكريمة بإشعاعات من فضة ، وذهب ، ومن زُرقة جميلة . كانت الحديقة تسطع بألوانها .

فتح ذراعيه على نحو أكبر ، فوثبت الحجارة باتجاه صدره . إبتسم للراصدين الصامتين الذين لم يجرؤوا على ملاقاة عينيه . الذين أخذوا بالذوبان شيئاً فشيئاً ومعهم الأشجار التي ذابت أيضاً . إنزلق جاثياً على ركبتيه جامعاً مجوهراته ، ثم أودعها في حضن صديقه .

أوصدَ بابُ السقيفة بهدوء مع سقوط المزلاج ، وهدأت الريح ، والصبيّ ما يزال يبتَسم ولا يتحرك .

نادت عليه أمه . نادت عليه ثانيةً ، لكنه لم يُجب . لذا ؛ هرعت راكضة في الحديقة واسمه يتردد على شفتيها . وهناك ، وسط العشب ، وجدت الصبيّ جاثياً ، وجهه بين يديه ، في ضوء القمر المعتم .

برمبر

انزلقت الخيالات هابطة على الدرجات نحو الصالة . استطاع أن يرى تكوينات الدرابزين الداكنة تنعكس في المرآة ، وقوس الثريا تلقي بضوئها . لكن هذا كان كل شيء . تضخمَت الخيالات وهي تتجه صوب الباب ، ثم ضاعت في ظلمة الأرض والسقف . تحسَّسَ جيبه باحثاً عن علبة ثقاب ، وأشعلَ الشمعة الرفيعة التي أمسك بها في يده . أدارَ القبضة رافعاً الشعلة النحيلة فوق رأسه ، وخطا إلى داخل الغرفة . ثمة رائحة غُبار وخشب عتيق . كانت حساسيته تجاه تلك الرائحة مثيرة للانتباه ، وكذلك تسريعها لتدفق خياله : عجائز عاكفات على عمل المخرّمات على ضوء القمر ، أصابعهن الرفعية الشاحبة تنسلّ مارّة في القماش المطرّز ، ووجناتهن دائمة الشباب بدت في مسحة وجنات الأطفال . كان هذا ما تُذكّره به الغرفة دائماً . منذ الأيام التي مشى فيها على رؤوس أصابعه ، وحَدّقَ برعب بالنوافذ المشرعة على المَرجَة الرمادية ، والأشجار وراءها . أو عندما كان ما يزال ولداً صغيراً ، يجلس أمام البيانو القديم ، لامساً مفاتيحه المغبرة برقة بالغة بحيث لا يمكن لأحد أن يسمع صوته ، خائفاً ، ومبتهجاً بارتفاعه المتردد في الهواء . كانت الغرفة مثيرة للحزن دائماً . وكان متحققاً من الحزن الكثيب الكائن في أرّق المقطوعات الموسيقية . وما إن لمست يدهُ ورقة النوتات ، حتى تجمعَت الدموع في عينيه .

ثمة توق هائل إلى شيء عرفهُ ثم نسيهُ . ثمة توق هائل إلى شيء أحبَّهُ ثم فقدهُ .

كان هذا قبل سنوات عدة ، وها يعاوده الآن نفس الإحساس بالوهم وبالتوق ، ما إن أشعَلَ شموعَ البيانو القديم بشمعته الرفيعة ورأى ، في ضوئها المنتشر ، الجدران تتجمع حوله مقتربة ، والمقاعد تستحثه للدخول . كانت المفاتيح مُغبّرة كما هي دائماً . مسحها بردنه برفق ، ثم جعل أصابعه تجول فوقها للحظة . كم كان صوتها سلساً . وكم كان النغم الناعم الذي أحدثته غريباً وحزيناً ، وكم كان ، مع ذلك ، مكتملاً . اعتقدَ لوهلة بأنه سمع أصوات وقع أقدام طفولية ، وراء الباب ، تركض عبر الممر نحو الظلمة . غير أنها اختفت بعد ذلك . فافترضَ بأنها لم تكن أصلاً . والآن ثمة ضحكة عابرة ترنّ في أذنيه ؛ وها قد اختفت الآن من جديد هي الأخرى . خُيّل إليه ، عندما عَزَفَ ، بأنه سمع الصوت الناعم ، الحفيفي ، لتنورة حريرية تُسْحَب على مساحة الأرض . تصاعدت موسيقاه عالياً إثر ذلك ، وعندما انخفضت ثانية لم يكن ثمة شيء .

لم يستطع ، رغم محاولاته ، تحليل الأسباب التي أدّت به للمجيء إلى المنزل . أرعبه ذلك ، ومع هذا لم يكن بمقدوره الانسحاب بعيداً عنه . شعر فجأة، وهو على الطريق في الخارج ، بالرغبة في تمزيق حجاب السنين ، وفي استعادة كل ما عَناهُ له ذلك المنزل القديم ، المعتم ، والأصوات الناعمة في الممرات ، والبيانو القديم ، والدرجات التي تتصاعد في الظلام بلا انتهاء ، وآلاف التفاصيل للحجرات ، والخوف الخفيف المثير للشك النابع من الزوايا ، والذي لم يبارحه أبداً . سارَ في الممشى المؤدي إلى الباب الأمامي . كَشّرَ فيه الأسد المحفور على مطرقة الباب . رفعها ، وخبَطَ الخشب . لم يُجبْ أحد . طَرقَ وطَرقَ ، لكن المنزل كان صامتاً . اتكأ بكتفه على الباب . إهتزَ منفتحاً . خطا على رؤوس أصابعه على طول الممرات ، نظرَ إلى داخل الحجرات ،

ولمسَ الحاجيات المألوفة . لم يتغيّر أي شيء . وبعد ذلك ، حينما زحف الليل خارج النوافذ المثبتة بالرصاص ، أغلقَ خلفه غرفة الموسيقى بلطف . كان ممتلئاً بارتياح عظيم . اتضحَ التوقُ الدائب في خلفية ذهنية ، وعُثِرَ على الشيء المفقود ، كما تَمَ تذكُر الشيء المنسي . كانت هذه نهاية الرحلة .

توهجت الشموع مع انقضاء اللحظات . كان بإمكانه أن يرى لمسافة أعمق داخل الغرفة . مشى منتصباً ، والتقطَ كتاباً مغبّراً مطروحاً على الطاولة . «منزل برمبر» . أتى به ناحية الضوء . كانت كل صفحة مألوفة لديه ، العائلة ، أجيال متلاحقة ، رجال فكر أكثر من كونهم رجال فعل ، جميع أصحاب الأخيلة الذين رأوا العالم من خلال غيوم أحلامهم . قَلَّب الصفحات حتى وصل إلى آخر ورقة : جورج هنري برمبر ، آخر الخَط ، تُوفيَ . . . .

نَظَرَ إلى اسمه ، ثم أغلق الكتاب .

الصُدرة

رنّ الجرس . لم يكن ثمة جواب . كانت في الخارج . أدارَ المفتاح .
كانت الردهة في ضوء الظهيرة المتأخرة مليئة بالخيالات . شكّلت الأخيرةُ تكويناً صلباً وواحداً إلى حَد ما . خَلَع قبعته ومعطفه ، ناظراً بانحراف ، لعله بذلك لا يرى التكوين في الضوء المنسرب عبر باب غرفة الجلوس .
« هل يوجد أحد ؟ »
أربكته الخيالات . كان بإمكانها أن تكنسها مثلما كنست الغُبار الدخيل .
كانت النار في غرفة الاستقبال واطئة . خطا باتجاهها وجلس . كانت يداه باردتين . احتاجَ إلى لهيب النار من أجل إضاءة زوايا الغرفة . لقد شاهد ، وهو في طريقه إلى المنزل ، كلباً داسته عربة . أثاره مشهد الدم . أراد أن يهبط على ركبتيه وأن يلمس بأصبعه الدم الذي كوّن بركة مستديرة في وسط الطريق. قام أحدهم بالإمساك بكمّه ، سائلاً إيّاه إنْ كان مريضاً . تذكّرَ بأن وقْع وقوة صوته قد أغرقا الرغبة الأولى . مشى بعيداً عن الدم ، وكان أثر العجلات الملطخة للعربة والسواد النافذ من أسفل غطاء محرّكها المعدني يلتّف أمام عينيه . احتاجَ إلى الدفء . لقد فصلت الريح في الخارج ما بين أصابعه وإبهاميه .
تركَتْ القطعةَ التي تخيطها على السجادة بالقرب من دِلو الفحم . كانت

منهمكة بعمل ثوب نسائي . التقطهُ رافعاً إيّاه إلى الأعلى ، ولمسهُ متحسساً أين سيستقر ثدياها تحت القطن الأصفر . رآها في ذلك الصباح وهي تقوم باستبدال ثيابها . كان رأسها أثناء ذلك ملفوفاً بالفستان الذي لم يسترها بعد . لقد رآها نحيلة ، وهي في تمام عُريها ، مثل كيس من الجِلد والحنّاء تنجرف خارج الضوء . أسقطَ الثوبَ على الأرض ثانية .

تساءل ، لماذا كان حاضراً هذا المشهد للكلب الأحمر والمهروس ؟ كانت المرة الأولى التي يرى فيها دماغ كائن حيّ ينفجر خارج الجمجمة . لقد تقيأ عند آخر عواء ومنظر لصدر الكلب الذي تجوّفَ . كان بمقدوره أن يقتلَ ويصرخَ ، مثل طفل يسحقُ خنفسة سوداء بين أصابعه .

لقد تمددت إلى جانبه منذ آلاف الليالي . لقد فكّر بعظام ذراعيها وهو بين ذراعيها . لقد تمدد صامتاً إلى جانب هيكلها العظمي . لكنها كانت تنهض في الصباح التالي بلحمها العفَن .

عندما آذاها ، كان ذَلك من أجل أن يخبّيء ألمهُ . وعندما ضرب خدها حتى تورَدَ الجلدُ ، كان ذلك من أجل أن يضع حداً للألم المبرّح لرأسه هو . أخبرته عن مَوت أمها . كانت قد ارتدت قناعاً من أجل إخفاء المرض على وجهها . لقد أحس بخراب ذلك المرض على وجهه هو ، وفي فمه وجفنيّ عينيه المرتعشين .

كانت الغرفة تُظلم شيئاً فشيئاً . وكان هو متعباً وغير قادر على إحياء النار بتقليبها بالرفش ، وَبذا شاهد آخر شعلة تموت . هَبّت برودةٌ جديدة نحو الداخل مع بداية الليل . استطعَمَ مَرَضَ موت الشعلة حالما صعدت إلى رأس لسانه ، ثم ازدردها . جَرتْ حول خفقان القلب ، وضربَتْ حتى باتت الرجع الوحيد . حتى باتت كل وجع الملعون المحكوم بالهلاك الأبدي . وجعُ رجل وزجاجة تتكسّر على وجهه ، وجعُ بقرة بينما عجلٌ يتراقص خارجاً منها ، وجعُ الكلب وهو يتحرّك من خلاله بدءاً من شعرَه المترمد حتى أخمص قدميه

المجلودتين .

عادت إليه قواه . هو والعجْل المتقطر ، الرجل بالوجه الممزق ، والكلب على قائمتين طائشتين نهضا كأنهما واحد ، بدماغ وجسد أحمر واحد ، يتحديان الوحش في الهواء . وما إن دخلتْ حتى سمع التحدي في إبهامه المطقطق وفي إصبعه .

رأى بأنها كانت ترتدي قبعتها الصفراء وثوبها الطويل .

« لماذا تجلس في العتمة ؟ » ، سألتْ .

ذهبت إلى المطبخ لتشعل الموقد . نهض عن كرسيه واقفاً . تبعها رافعاً يديه أمامه كضرير . كانت تمسك بعلبة كبريت . وعندما أخرجت عوداً فاسداً وحكّته على العلبة ، أغلقَ الباب خلفه . «إخلعي ثوبكِ » ، قال .

لم تسمعه ، وابتسمت .

« إخلعي ثوبك » ، قال .

توقفت عن الإبتسام ، وأخرجت عوداً صالحاً وأشعلته .

« إخلعي ثوبك » ، قال .

خطا نحوها بيديه المرفوعتين أمامه . إنحنت فوق الموقد . نفخَ على العود وأطفأه .

« ما الأمر ؟ » ، قالت .

تحركت شفتاه ، لكنه لم يتكلّم .

« لماذا ؟ » ، قالت .

صَفعَ خدها بيده المفتوحة صفعة في غاية اللطف .

« إخلعي ثوبك » ، قال .

سمع ثوبها يُحدث حفيفاً فوق رأسها ، وكذلك نشيجها المرتعب ما إن لمسها . وعلى نحو منتظم قامت يداه الممدودتان بتعريتها .

مشى خارج المطبخ ، وأغلقَ الباب .

وفي القاعة ، كان الخيال المقتَرن قد انكسر . لم يكن باستطاعته رؤية وجهه في المرآة عندما ربطَ وشاحه ومَسّد على حافة قبعته . هنالك وجوه عديدة جداً . لكل وجه جانب من قَسماته ، ولكل وجه خصلة متيبسة من شعره . رفعَ ياقة معطفه . كانت ليلة شتائية ماطرة . أخذ يعد المصابيح حالما خرج . دفعَ باباً وفتحه ، ثم خطا باتجاه الدفء . كانت الغرفة خاوية . ابتسمت المرأة خلف المشرب عندما حكّت قطعتين نقديتين ببعضهما بعضاً .

«إنها ليلة باردة » ، قالت .

كَرعَ الويسكي ومضى إلى الخارج .

سارَ قُدماً عبر المطر المتزايد . عَدَّ المصابيح من جديد ، لكنها لم تصل إلى رقم .

كانت زاوية المشرب خاوية . أخذ شرابه إلى الصالون ، غير أن الصالون كان خاوياً أيضاً .

كانت **الشمس المشرقة** (*) خاوية .

لم يسمع صوت العربات في الخارج . تذكّر بأنه لم يرَ أي إنسان في الشوارع . صرخ بصوت عال بسبب من رعب الوحدة :

« أين أنت ؟ أين أنت ؟ » .

عندها ، صارَ أن مَرّت العربات ، كما أن النوافذ توهجت بالضوء . تناهى إليه صوت غناء ينبعث من المنزل عند المنعطف .

كانت الحانة مزدحمة . ثمة نساء يضحكن ويصرخن . سكبنَ شرابهن على ملابسهن ورفعنها إلى الأعلى . ثمة فتيات يرقصن فوق النشارة . أمسكت به إحدى النساء من ذراعه وفركت وجهه على ردنها ، ثم أخذت يده في يدها ووضعتها فوق عنقها . لم يكن بمقدوره سماع أي شيء ما عدا

* إسم الحانة (المترجم) .

أصوات النساء الضاحكات وصياح الفتيات وهن يرقصن . وبعد ذلك أخذت النساء الغليظات بالتقدّم نحوه من المقاعد والزوايا وهن يتأرجحن . رأى أن الغرفة مليئة بالنساء . ثم أخذن يتجمعن ، ببطء، وبضحك متواصل ، ويقتربن منه .

همسَ بكلمة من خلال تنفسه ، وأحسَّ بالمرض القديم يستحيل إلى مذاق حامضي داخل معدته . كان ثمة دم أمام عينيه .

ثم انفجرَ ، هو أيضاً ، بالضحك . دَسَ يديه عميقاً في جيبيّ معطفه ، وضحك في وجوههن .

تشبّثت يدهُ بشيء طَري داخل جيبه . انتزعها ، وكان الشيء الطري فيها .

ماتَ الضحكُ . كانت الغرفة جامدة . وقفت النساء يراقبنه بصمت وجمود .

رفعَ يده إلى مستوى عينيه ، وكانت قد أمسكت بقطعة قماش طري .

« مَن يشتري ثوب سيدة » ، قال . « هيا ، هيا ، أيتها السيدات ، مَن يشتري ثوب سيدة . »

وقفت النساء الصبورات والعاديّات اللاتي في الحانة ساكنات بلا حركة ، كؤوسهن في أيديهن ، بينما اتكأ بظهره على خشبة المشرب ، وأطلقَ صرخة ممزوجة بضحك ، ولوّحَ بالقماشة المُدماة أمامهن .

القصة الحقيقية

كانت المرأة العجوز في الطابق الأعلى تحتضر منذ كانت هيلين تستطيع التذكّر . كانت ممددة مثل امرأة من شمع بين شراشفها مذ كانت هيلين طفلة تأتي مع أمها لجلب الفواكه الطازجة والخضروات للعجوز المحتضرة . والآن ، هيلين امرأة تحت مئزرها وردائها المطبوع عليه ، وكان شعرها الباهت ملموماً على شكل عقدة عند مؤخرة رأسها . تستيقظ كل صباح مع الشمس ، تشعل النار ، وتدع القطة ذات العينين الحمراوين تدخل . أعَدّت إبريقاً من الشاي ، وصعدت إلى غرفة النوم الكائنة خلف الكوخ ، وانحنت فوق المرأة العجوز التي ما كانت عيناها غير المبصرتين لتنغلقا أبداً . نظرت كل صباح في تجويفي العينين ومررت يديها فوقهما . لكن الجفنين لم يتحركا ، وما كانت قادرة على الجزم بأن المرأة العجوز كانت تتنفس . « الساعة الثامنة ، إنها الثامنة الآن » ، قالت . وابتسمت العينان على الفور وخرجت يد خشنة من بين الشراشف وظلّت هناك إلى أن أخذتها هيلين في يدها المبطنة وأحكمت إغلاقها حول القدح . وعندما بات القدح فارغاً قامت هيلين بملئه ، وعندما فرغ الإبريق سحبت الشراشف البيضاء من على السرير . هناك كانت المرأة العجوز ، ممددة في منامتها ، وكان لون لحمها رمادياً كلون شعرها . حزمت هيلين الشراشف وأصغت إلى مطالب المرأة . ثم أخذت الإبريق .

أعَدَّت الفطور كل صباح للولد الذي عمل في الحديقة . ذهبت نحو الباب الخلفي ، فتحته ، ورأته في البعيد ومعه مجرفته . « إنها الثامنة والنصف الآن» ، قالت . كان ولداً بشعاً وكانت عيناه أكثر إحمراراً من عينيّ القطة ، كانتا شقين ماكرين في رأسه تتجسسان دائماً على أول ظلال نهديها . وضعت طعامه أمامه . كان يقول كلّما نهض « هل هنالك ما تريدين مني القيام به ؟ » . ولم تقل قط « نعم » . عاد الولد ليحفر ويستخرج البطاطا من رقعة الأرض الصغيرة أو ليحصي بيض الدجاجة ، وفيما إذا كان ثمة توت يجب التقاطه من بين أجمة الحديقة ، فلقد رافقته من أجل ذلك قبل الظهر . كانت تفكر ببقعة النقود تحت فرشة المرأة القديمة وهي ترى الزبيبات الحمراء المتجمعة في راحة يدها . وإذا ما كان هناك دجاجاً ليُقتَل ، فإنها كانت قادرة على قطع أعناقها بنظافة أكثر من الولد الذي ترك سكينه في الجرح ثم مسح الدم الذي عليها بردنيه . أمسكت بدجاجة وقتلتها ، وأحسّت بدمها الحار ، ورأت الدجاجات تتراكض في الممر بلا رؤوس . ثم دخلت لتغسل يديها .

كانت أسابيع الربيع الأولى حين قررت أن تقتل المرأة العجوز في الطابق الأعلى . كانت في العشرين من عمرها . ثمة العديد من الأشياء التي أرادتها . أرادت رجُلاً لنفسها وثوباً أسود لأيام الآحاد وقبعة بوردة . لم تكن تملك مالاً على الإطلاق . وفي الأيام التي أخذ فيها الولد البيض والخضروات للسوق ، أعطته البنسات الستة التي منحتها لها المرأة العجوز ، ووضعت النقود التي جاء بها الولد من السوق محفوظة في منديله في يد المرأة . عملت لقاء طعامها ومأواها مثلما عمل الولد من أجل طعامه ومأواه . ومع هذا نامت هي في غرفة في الطابق الأعلى ، ونام هو في سرير من قش فوق السقيفة الخاوية .

في صباح أحد أيام التسوّق مشت في الحديقة لتدع الخطة تستقر في رأسها . كان يوماً رائعاً من أيام أيار ليس فيه أكثر من غيمتين في السماء ، يدان عديمتا الشكل تنطبقان حول رأس الشمس . « لو أستطيع الطيران » ، فكرت ،

«أستطيع أن أطير إلى داخل النافذة المفتوحة وأن أغرز أسناني في عنقها» . لكن الريح الباردة هَبّت كاسحة الفكرة . عرفت بأنها ليست فتاة عادية ، إذ أنها قرأت كتباً في أمسيات الشتاء حين كان الولد يحلم في السقيفة ، وكانت المرأة العجوز وحدها في الظلام . كانت قد قرأت عن إله نزل مثل النقود ، عن أفاع تخرج مع أصوات الرجال ، وعن رجل وقف على قمة تلة يتحدّث مع قطعة نار .

عند نهاية الحديقة ، حيث حَجزَ السياجُ الأعشاب البرية والحقول الخضراء ، وصلت هي إلى كومة تراب . هناك حيث دفنت الكلب الذي قتلته لإمساكه بالدجاجات وقتله لها . كان تاريخ الوفاة مكتوباً على صليب خشن على نحو عكسي للإيحاء بأن الكلب لم يمت بعد . «كنت أستطيع دفنها هنا» . قالت هيلين لنفسها ، «عند جانب القبر ، كي لا يستطيع أن يعثر عليها أحد .» ثم طقطقت يديها ووصلت إلى الباب الخلفي للكوخ قبل أن تحيط الغيمتان بالشمس .

في الداخل كانت الوجبة التي عليها أن تعدها للمرأة العجوز . البطاطا التي ستهرسها مع الشاي . فكّرت بالجريمة التي كانت تنوي اقترافها بينما السكين في يدها والقشور في حجرها . أصدرت السكين الصوت الوحيد ، سكنت الريح ، وكان قلبها هادئاً كأنما قامت بلَفِّه . لم يتحرّك أي شيء في الكوخ ؛ كانت يدها ميتة فوق حجرها ؛ لم تَستطع التفكير بأن الدخان قد صعد في المدخنة وخرج إلى السماء الساكنة . كان ذهنها هو الشيء الوحيد في العالم الذي يتكتك . ثم صرخ ديك عندما كانت جميع الأشياء ميتة ، وتذكرت الولد الذي سيرجع قريباً من السوق . قررت أن تَقتلَ قبل أن يعود ، لكن يجب أن يُحفر القبر وأن تُملأ الحفرة . أحسّت هيلين بيدها تموت ثانية في حجرها . وفي وسط عملية القتل سمعت يد الولد ترفع المزلاج . جاء إلى المطبخ ، رأى أنها تنظف البطاطا ، وأسقط منديله على الطاولة . وبينما تُنصتُ

إلى رنين النقود ، رفعت عينيها صوبه وابتسمت . لم يكن قد رآها تبتسم أبداً من قبل .

وسرعان ما وضعت وجبته أمامه ، وجلست جانباً بجوار النار . وما إن رفع السكين إلى فمه حتى شعر بالنظرة الكاملة لعينيها على جانبي عينيه . « هل قمت بأخذ عشائها إليها ؟ » ، سألَ . لم تُجب . وعندما انتهى نهض عن الطاولة وسأل ، « هل هنالك ما تريدين مني القيام به ؟ » كما سبق وأن سأل آلاف المرات . « نعم » ، قالت هيلين .

لم تقل له « نعم » قط . لم يسمع امرأة تتكلّم مثلما تكلّمت لحظتها قط . لم يسبق لأول ظل من نهديها أن كان مظلماً مثلما الآن . مشى صوبها ورفعت هي يديها إلى كتفيها . « ما الذي ستقوم به من أجلي ؟ » قالت ، وحلّت رباط ردائها فسقط عنها تاركاً نهديها عاريين . أخذت يده ووضعتها على جسدها . حدّق إليها وهي عارية ، ثم تفوّه باسمها وضمّها إليه . ضمّته إليها أكثر . «ما الذي ستقوم به من أجلي ؟ » . تركت رداءها يسقط على الأرض ومزّقت بقية ثيابها . « ستقوم بما أريده » ، قالت بينما هَوت يداه عليها .

جاهدت بعد دقيقة لتخرج من بين ذراعيه وركضت بلطف عبر الغرفة . وبظهرها العاري المتجه نحو الباب المؤدي إلى الأعلى أومأت إليه مغرية إيّاه وقالت له ما ينبغي عليه القيام به . «ستساعدني ، سنصبح أغنياء » ، قالت . ابتسم وهزَّ برأسه موافقاً . حاول أن يمد أصابعه نحوها ثانية لكنها أمسكت بها وفتحت الباب وقادته إلى الأعلى . « إبقَ هادئاً هنا » ، قالت . نظرت إلى ما حولها في غرفة المرأة العجوز للمرة الأخيرة ، إلى الإبريق المصدوع ، إلى النافذة نصف المفتوحة ، إلى السرير والآية من الكتاب المقدّس على الجدار . «إنها الواحدة الآن » ، قالت في أذن المرأة العجوز . « إنها الواحدة الآن » ، قالت ، وخبطت بحركة مفاجئة رأسَ المرأة العجوز على الجدار . لم تحتج سوى إلى ثلاث خبطات صغيرة ، وانفجر الرأس مثل بيضة .

« ما الذي فعلتيه ؟» صاح الولد . نادت عليه هيلين كي يدخل . حدّق بالمرأة العارية التي نظفت يديها على السرير وبالدم الذي شكّل بقعة مستديرة حمراء على الجدار ، لكنه زعق ثانية مقابل صوتها الهادىء وانطلق مسرعاً نحو الأسفل .

«إذن على هيلين أن تطير » ، قالت لنفسها . «طيري خارج غرفة المرأة العجوز» . فتحت النافذة أكثر وخَطَت خارجها . « إنني أطير» ، قالت .

لكنها لم تكن تطير .

ما يخص جارلي (*)

في اليوم الذي حَلّت فيه أعمال الشمع المتنقلة في البلدة إختفى المساعد . اتصلَ صاحبها ، في صباح اليوم التالي ، بوكالة الاستخدام وطلب صبياً ذكياً يمكنه أن يتكلّم الإنكليزية . لكن الصبية الأذكياء يتكلمون الويلزية [١] ، كما أنَّ للولد الذي من بريستول [٢] شفَةً شرماء . لذا ، عاد صاحب الأعمال الشمعية إلى مستودعاته ، ورأى ، وهو يمرّ بالقناة ، أليعازر على ضفة النهر .

« هل حالفكَ الحظ ؟ » ، استفسرَ .

« إنني لا أصيد » ، أجاب أليعازر .

وكان له أن ارتبط بالعمل على الفور .

* * *

كان مساءً متأخراً ، حينما غادر الخيمة آخر زائر فضولي . أحصى المالك

(*) Jarley's من Jarl : وتعني الشخص النبيل ، مساعد الملك ، في اللغة النوردية القديمة ـ شمال أوروبا (الاسكندنافية) . ولقد لعبَ الكاتب على الإسم ليحاكي به اسم تشارلي من ناحية ، وليقيم موازياً في الدلالة بين مساعد الملك Jarl ، والمساعد الأخير لمالك الأعمال الشمعية في القصة . (المترجم) .

(١) مقاطعة في بريطانيا . (المترجم) .

(٢) مدينة على الساحل الإنكليزي . (المترجم) .

إيرادات اليوم ، وذهب تاركاً أليعازر وحده في عالم الشمع المُظلم . أزال أليعازر آخر عقب سيجارة من على الأرض ، وأخرج خرقة مسح الغبار من جيبه . مسحَ الغبار وهو يرتجف عن جسم هياواثا [١] النحيل البني اللون ؛ ومرتجفاً مَلّسَ على وجنتي تشارلي بيس [٢] الشاحبتين ؛ ومرتعشاً مسحَ الغبار عن عنق سيرسي [٣] الشمعي .

« لقد نسيت ربلة ساقي اليسرى » ، قال هياواثا .

« لقد نسيت شفتي العليا » ، قال تشارلي بيس .

« لقد نسيت كتفي اليمنى » ، قالت المُغوية .

نظر أليعازر إلى التماثيل الشمعية بذهول .

« لقد سمعتني » ، قال هياواثا .

« لقد سمعتني » ، قال تشارلي بيس .

« لقد سمعتني » ، قالت المُغوية .

حَدّقَ أليعازر حوله . كان المدخل المؤدي إلى الخيمة بعيداً جداً . لم يكن ثمة مهرب .

« ربلةُ الساق » ، قال هياواثا .

« الشفة » ، قال تشارلي بيس .

« الكتف » ، قالت سيرسي .

مرتجفاً قام أليعازر بمسح الغبار عن ربلة الساق قوية العضل ؛ ومرتجفاً مَلّسَ على الشفة الغاضبة ؛ ومرتجفاً أزال الغبار عن الكتف الشمعية .

---

(١) Hiawatha : صانع الأنهار . زعيم هندي أسطوري من أميركا الشمالية ، يرمز إلى الحضارة والتقدّم ، ويُتخذ على أنه حامي الإنسان من قوى الشر في الطبيعة . (المترجم)

(٢) Charlie Peace : مجرم وقاتل إنكليزي عريق . (المترجم).

(٣) Circe : الساحرة في ملحمة الأوديسة لهوميروس التي تجذب ضحاياها وتحولهم إلى خنازير . رمز للإغواء الذي لا يقاوَم . (المترجم).

« إن هذا أفضل بالتأكيد » ، قال هياواثا . « فكما ترى » ، أكمل حديثه معتذراً «اعتدتُ على العَدْوِ كثيراً ؛ وهذا سيعفّر ربلتي الساقين ، أليس كذلك؟» .

« إنني أغضب كثيراً » ، قال تشارلي بيس .

« إنني أقوم بإغواءات كثيرة » ، قالت المغوية ؛ « مع أنني ، في الحقيقة ، ينبغي أن أفقد جاذبيتي حتى هذا الوقت ؛ كما أن كتفي لم تعد كما كانت . لقد تعرضتُ مرة للعضّ في أبيردير [1] . »

«إنني أذكرُ الليلة جيداً » ، قال هياواثا . «قام أحدهم بوضع قبعة قديمة عليّ . »

«إنني أذكرُ الليلة » ، قال القاتل ، « وقت أن كُنت طفلاً وغرزت إبرة في مرضعتي : كانت ابرة رفو . »

«إنني أذكرُ مطاردتي لمينيهاها [2] على طول المنحدرات النهرية ، » ، قال هياواثا . « اعتادت أن تغتاظ بشدة حينما كنت أدعوها بـ**المياه الضاحكة.** »

«إنني أذكرُ عيني جيسون [3] الخضراوين كالبحر » ، قالت سيرسي .

لم يكن باستطاعة أليعازر أن يتذكر شيئاً . اختفت مخاوفه الأولى ليحل محلها شعور بالفضول الحميم . استفسر بأدب إن كان كل شيء على ما يرام في عالم الشمع .

---

(١) Aberdare : جبل بارتفاع ٢٣ ألف قدم شمال نيروبي . هي المنطقة الرئيسية حيث استقر فيها الأوروبيون في كينيا . (المترجم) .

(٢) Minnehaha : حورية نهر Minnesota في أميركا الشمالية ، الجاري من الحدود الغربية لولاية مينيسوتا ليصب في نهر المسيسبي ، قرب مدينة سان بول بطول ٣٣٢ ميلاً . (الموسوعة) .

(٣) Jason : قائد حملة أرغونوت للبحث عن خصلة الصوف الذهبية المأخوذة من الكبش الذي حمل فريكوس إلى كولتشيس (أرض ميديا الأسطورية) ، وزوج ميديا ـ الساحرة إبنة الملك ايتيس ، والتي ساعدت زوجها في استعادة جزة الصوف الذهبية . (المترجم) .

«إنه على ما يرام » ، قال هياواثا . «لديّ القليل مما أشكو منه . ثمة الكثير يمكن قوله حين تكون من الشمع . إن للواحد منّا بعض المشاكل . فمن الصعب الإحساس بالأذى . إن السهم شديد الرهافة لا يمكنه أن يؤذيني : سرعان ما يُعبّأ الإنطباع الآني بقيمة الشمع التافهة المأخوذة من المخازن المحلية . إنه لضرب من الحيرة الدائمة بالنسبة لي أنَ أكثرالناس لا يتنبهون إلى حَسَنات حياة الشمع . »

« وكيف الحال معك ، يا سيدتي ؟ » . سألَ أليعازر .

«ما تزال لديّ الرغبة في الإغواء » أجابت المُغوية . « الرغبة التي لا أستطيع التغلّب عليها . كما أنني ما أزال أذكرُ هاتين العينين الخضراوين كالبحر . »

«إن القتلَ كاحتراف » ، طفقَ تشارلي بيس يقول . . .

«إن هنري ويدسوورث » ، طفقَ هياواثا يقول . . .

«إن تاريخ الإغواء » ، طفقت المُغوية تقول . . .

وفجأة جمدت التماثيل الشمعية الثلاثة .

جَرَّ أليعازر قدميه على أرض الخيمة .

« يا أليعازر » ، قال قرد ما .

« نعم سيدي ؟ » ، قَال أليعازر .

« إن الحياة » ، قال القرد ، « هي لغز لن ينتهي أبداً . نحن نولد . لماذا نولد ؟ نحن نموت . والسبب واضح . إن حياة الجسد قصيرة ، والأوردة عاجزة عن حمل تدفق أبدي للدم . »

كان بإمكان أليعازر أن يمضي في طريقه ، لكن القرد رفع يده . « قف » ، قال القرد . « فكّرْ ملياً في إنسان اللحم وفي إنسان الشمع . كل شيء تم صنعه من أجل إنسان الشمع ؛ صُنعَ بلا ألم وببراعة ؛ وُجدَ مُنزلاً في خيمة جميلة واقية للمطر أو في داخل بناية واسعة وصحيّة ؛ إنهَ مكسو بالثياب ، ممسوح

ونظيف من الغبار ؛ إنه قبلة أنظار كل العيون . فكّرْ في الفُرَص التي يستمتع بها وهو يدرس عقلية جاره القريب منه . إن وجوه الرجال ، يوماً بعد يوم ، تنضغط مقتربة من وجهي ؛ إنني أرى ما في عيون الرجال ؛ إنني أنصت إلى أحاديثهم . إن رجل الشمع رجل غير متغير ، غير متحيّز ، ومراقبٍ غير عاطفي للملهاة الإنسانية . »

«يا سيدي» ، قال أليعازر ، «أنت تتكلّم بشكل جيد جداً بالنسبة لقرد . »

«يا أليعازر» ، قال القرد ، «أنا لم أعرف هذا الشكل الشمعي إلاّ منذ يومين فقط . لقد كنتُ المساعد الأخير . »

«أخبرني » ، قال أليعازر ، «هل تحسّ بالبرودة ؟»

«لا أحسّ بالبرودة ولا بالدفء . »

«هل تحسّ بالجوع ؟»

«لا أحسّ بالجــوع ولا بالعطش . أنا لا أحسّ بشيء . أنا لا أريد أي شيء . أنا سعيد على الدوام . »

خَلعَ أليعازر سترته وبنطاله .

« أفسحْ مكاناً ـ هيّا تَحرَكْ » . قال أليعازر .

* * *

في الصباح التالي أتصلَ المالك بوكالة الاستخدام ، وطلبَ صبياً ذكياً .

«وينبغي أن يكون حَذراً ، أيضاً . » قال مُفَسّراً « إذ أن أعمالي الشمعية قد أضيفَ إليها تمثال ثمين جديد . »

«تمثال تاريخي ؟»

«لا ، لا » ، قال المالك ؛ « تمثال لكاهنٍ [١] ويلزيّ بقميص طويل أبيض . »

---

(١) جاء في النص (تمثال لدّرويد Druid) وهو الكاهن عند قدماءالإنكليز . (المترجم) .

ريموند كارفر

(١٩٣٨ـ ١٩٨٨) Raymond Carver

ولد القاص والشاعر الأميركي ريموند كارفر في ٢٥ أيار/مايو عام ١٩٣٨ في كلاتسكين ، أوريغون، وعاش في بورت آنجليز، واشنطن ، خلال السنوات العشر الأخيرة من عمره التي اتسمت بالاعتدال (كان مدمناً على الكحول)، وتوفي مصاباً بالسرطان في ٢ آب/أغسطس عام ١٩٨٨.

من الجوائز العديدة التي حاز عليها ؛ جائزة مجلة شعر Poetry عام ١٩٨٥ ، كما تم انتخابه عام ١٩٨٨ عضواً في الأكاديمية الأميركية للفنون والآداب ، إضافة إلى حصوله على درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة هارت فورد.

تُرجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة.

كتب في القصة القصيرة ١٢ مجموعة، منها : «ضَعْ نفسك مكاني»، و«رجاءً التزمْ الصمت، رجاءً»، و«عمّا نتحدّث عندما نتحدّث عن الحب؟»، و«حياة أبي».

وفي الشعر تسع مجموعات، منها : «حيث يتجمّع الماءُ مع ماء آخر»، و«دربٌ جديد إلى الشلال»، و«أرقٌ شتائي»، و«اللازوَرد».

مهارات شائعة

تَغيّرَ الطقسُ باكراً ذاك النهار وذاب الثلج متحوّلاً إلى ماء قذر. جرَت منه عدّة خيوط منزلقة من على حافة النافذة المواجهة للباحة الخلفية. مرّتْ العربات على الشارع في الخارج حيث بدأت تعتم، لكنها كانت تعتّم في الداخل أيضاً.

كان في غرفة النوم يحشر ثياباً في حقيبة اليد عندما وقفت عند الباب.

ـ أنا سعيدة لرحيلك! أنا سعيدة لرحيلك!. قالت. هل تسمع؟

تابع وضع أشيائه في حقيبة اليد.

ـ يا ابن الزنا! أنا سعيدة جداً لأنكَ راحل!. وبدأت تبكي. إنكَ لا تستطيع حتّى أن ترفع عينيكَ في وجهي، هل تستطيع؟

وبعد ذلك انتبهت إلى صورة الطفل عند السرير فالتقطتها.

نظرَ إليها. مَسَحَت عينيها وتفرّست فيه قبل أن تستدير وتذهب عائدة إلى غرفة المعيشة.

ـ أعيدي الصورة. قال.

ـ ما عليكَ إلاّ أن تَلم حاجاتك وتغادر. قالت.

لم يُجب. أقفلَ الحقيبة، ارتدى معطفه، وجالَ ببصره أركان غرفة النوم قبل أن يُطفيء النور.

وقفت عند مدخل المطبخ الصغير، حاملة الطفل.

ـ أريد الطفل . قال .

ـ أأنتَ مجنون؟

ـ كـلا ، لكنني أريد الطفل . سـأدبّر أحـدهـم ليأتي إلى هنا من أجل هذا الشيء .

ـ لن تلمس هذا الطفل . قالت .

بدأ الطفل يبكي ، وما كانت قد لَفّت البطانية حول رأسه .

ـ أوه ، أوه ، قالت ، ناظرةً إلى الطفل .

وتَحركَ باتجاهها .

ـ العياذ بالله ! ، وتراجعت خطوة للوراء في داخل المطبخ .

ـ أريد الطفل .

ـ أخرج من هنا .

استدارت وحاولت أن تحمل الطفل بعيداً عن إحدى الزوايا وراء الموقد .

لكنه تابعَ تقدمه . وصلَ إلى الموقد ووضعَ يديه فوق الطفل .

ـ أتركيه ، قال .

ـ ابتعدْ ، ابتعدْ! ، صرخت .

كان الطفل أحمر الوجه ويزعق . أسقطا ، أثناء الاشتباك ، اصّ ورد كان معلقاً عند الموقد .

عندئذ دفعها نحو الحائط ، محاولاً أن يحطم قبضتها . أمسك بالطفل ودفعَ بكل ثقله .

ـ أتركيه . قال .

ـ لا تفعل هذا ، قالت ، انكَ تؤذي الطفل .

ـ أنا لا أؤذي الطفل . قال .

لم تصدر عن نافذة المطبخ أيما إضاءة . وفي المسافة المظلمة عمل على ثَني أصابعها المشدودة بواحدة من يديه ، وبالأخرى قبض على الطفل الزاعق من

تحت ذراعه بالقرب من الكتف .

أحسَّت بأصابعها تُجبر على أن تنفتح . أحسَّت بالطفل يؤخَذ منها .

ـ لا ! ، صرخت حالما باتت يداها بلا قوة .

ودَّت لو تحتفظ به . . هذا الطفل . تشبثت بذراع الطفل الأخرى .
أمسكت بالطفل من وسطه وجذبته إليها .

لكنه لم يتراجع . أحس بالطفل ينزلق فالتا من بين يديه ، فجذبه بقوة كبيرة .

وبهذه الأخلاق تَم حسم نقطة الخلاف .

لماذا يا حبيبي ؟

سيدي العزيز :

كنت في غاية الإندهاش لإستلامي رسالتكَ تسألني فيها عن إبني ، كيف عرفت انني هنا؟ لقد انتقلت إلى هنا بعد أن بدأت المشكلة . لا أحد يعرف مَن أنا التي تسكن هنا ، ولكن يبدو أن الأمر سيّان . إنه هو الذي أخشاه . عندما أنظر إلى الجريدة أهز رأسي وأتساءل . لقدَ قرأت ما كتبوه عنه وإنني لأسأل نفسي أهذا هو إبني حقاً ، أهو حقاً يفعل هذه الأشياء؟

كان ولداً طيباً خلا هيجانه وانه غير قادر على قول الحقيقة . لا أستطع منحكَ أي تفسيرات . بدأ ذلك في صيف ما بعد الرابع من تموز(*) ، وكان قد شارف على الخامسة عشرة من عمره . اختفت قطتنا ترودي وظلت في الخارج طوال الليل والنهار التالي . جاءت السيدة كوبر ، التي تسكن بجوارنا ، في المساء التالي لتخبرني أن ترودي لجأت إلى باحة بيتها الخلفية في تلك الظهيرة لتموت هناك . قالت بأن ترودي قد قُطِّعَت غير أنها تعرفت عليها . قام السيد كوبر بدفن ما تبقى منها

قُطِّعتْ؟ . قلت . ماذا تعنين قُطِّعَتْ؟

(*) الرابع من تموز عيد الاستقلال الأميركي . (المترجم) .

شاهدَ السيد كوبر ولدين في الحديقة يضعان مفرقعات في أذني ترودي وفي أنت تعرفين أين. حاول أن يوقفهما إلاّ أنهما هربا.

مَنَ، مَن يمكنه أن يفعل شيئاً كهذا، هل رأى مَن هما؟

لم يعرف الولد الآخر لكن أحدهما ركض بهذا الاتجاه. ظَنَ السيد كوبر أنه كان إبنك.

هَزَزتُ رأسي. لا، ليس هذا بصحيح، إنه لا يقوم بشيء كهذا، لقد أحبَ ترودي، إن ترودي تعيش مع العائلة منذ سنين، لا، إنه لم يكن إبني.

أخبرته في ذلك المساء عن ترودي وتظاهرَ بالدهشة وهزَ رأسه أسفاً وقال أنه يجب علينا أن نُعلن عن جائزة لمن يعثر على الفاعل. قام بطبع شيء على الآلة الكاتبة ووعد أن يضعه في بريد المدرسة. لكنه قال، حين كان يَهِّمُ بالذهاب إلى غرفته تلك الليلة، أن عليك أن لا تحزني كثيراً، يا أمي، لقد كانت مُسِّنة، كانت إذا ما قيست بعمر القطط ٦٥ أو ٧٠، لقد عاشت عمراً طويلاً.

كان يعمل بعد الظُهر وأيام السبت كولد في المخزن في محلات هارتلي. أخبرتني صديقة لي تعمل هناك، بيتي ويلكس، عن العمل وقالت بأنها ستسعى من أجل أن يحصل على الوظيفة. ذكرتُ له هذا في ذلك المساء وقال هذا جيد، فمن الصعب العثور للشباب على عمل.

في الليلة التي سيقبض فيها أول راتب له طبختُ أفضل عشاء يحبه ووفرت كل شيء على الطاولة عندما دخل. ها هو رجل المنزل، قلت، معانقة ايّاه. إنني جد فخورة، كَم قبضت، يا حبيبي؟. ثمانون دولاراً، قال. كنت مذهولة. هذا رائع، يا حبيبي، إنني لا أكاد أصدق. أنا جائع، قال. فلنأكل.

كان هذا مفرحاً، لكنني لم أقدر أن أصدقه، كان أكثر مما أتقاضاه أنا.

عندما رتبت الغسيل عثرت على ايصال محلات هارتلي في جيبه، كان

إيصالاً بـ ٢٨ دولاراً ، لكنه قال ٨٠ . لماذا لا يقول الحقيقة ؟ لم أقدر أن أفهم .

كنت أسأله أين ذهبتَ الليلة الماضية ، يا حبيبي؟ . إلى المسرح . . كان سيجيب . ثم أكتشف أنه ذهب إلى مدرسة الرقص أو أنه أمضى المساء متجولاً في الأنحاء مع أحدهم في سيارة . كنت أفكر ماذا سيكون الفارق ، لماذا لا يكون صادقاً ، لا يوجد أي سبب يدعوه للكذب على أمه .

أذكر انه في إحدى المرات كان من المفترض أن يقوم برحلة في الخلاء ، ولذلك سألته ماذا رأيت في الحقول ، يا حبيبي؟ هَزّ كتفيه مستخفاً وقال تكوينات أرضية ، صخور بركانية ، رماد ، أرونا أين كانت توجد بحيرة كبيرة قبل ملايين السنين ، انها الآن مجرد صحراء . نظر في عينيّ وتابع حديثه . بعد ذلك بيوم واحد تلقيت إشعاراً من المدرسة يطلبون فيه إذناً مني من أجل الرحلة، فهل أمنحه الإذن بالذهاب .

قبل نهاية سنة التخرج بقليل اشترى سيارة وذهب . كنت مهتمة بعلاماته لكنه كان يضحك . أنت تعرف أنه كان تلميذاً ممتازاً ، أنت تعرف ذلك عنه إذا كنت تعرف أي شيء . بعد ذلك اشترى بندقية وسكّين صيد .

كرهتُ رؤية هذه الأشياء في البيت وقلت له ذلك . ضحك ، فهو يملك أن يضحك دائماً . قال بأنه سيحتفظ بالبندقية والسكين في صندوق سيارته . وقال أنه من الأسهل الوصول إليها هناك على أي حال .

ذات ليلة سبت لم يَعُد إلى البيت . كنت في حالة قلق رهيب . في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي جاء طالباً مني أن أعد له فطوراً ، وقال بأنه أمضى الوقت في الصيد، وقال بأنه آسف لغيابه طوال الليل ، وقال بأنهم قادوا السيارة مسافة طويلة ليصلوا إلى هنا . بدا لي الأمر غريباً . كان عصبياً .

أين ذهبت؟

إلى التلال . أطلقنا بعض الطلقات .

مع مَن ذهبت ، يا حبيبي؟

فرد.

فَرد؟

حَدّق بي ولم أقل شيئاً آخر.

حدث هذا يوم الأحد مباشرة بعد أن بحثت في غرفته عن مفاتيح سيارته. لقد وعدَ بأن يشتري بعض لوازم الفطور أثناء عودته من العمل في الليلة السابقة، واعتقدت باحتمال أنه ترك الأشياء في سيارته. رأيتُ حذاءه الجديد مركون تحت سريره ومغطى بالوحل والرمل. فتح عينيه.

حبيبي، ماذا جرى لحذائك؟ أنظر إلى حذائك.

لقد هرعتُ من أجل الغاز، كان عليّ أن أبحث عن الغاز. وجلس. ماذا يهمك من الأمر؟

أنا أمكَ.

وأثناء استحمامه أخذت المفاتيح وذهبت نحو سيارته. فتحت الصندوق. لم أجد لوازم الطعام. رأيت البندقية مُلقاة على لحاف وكذلك السكين، ورأيت قميصاً مَطوّى على شكل كُرة فهززته وكان ملطخاً بالدم. كان القميص رطباً. أسقطته، أغلقت الصندوق وخطوت باتجاه البيت ورأيته يراقبني من النافذة ثم فتحَ الباب.

لقد نسيت أن أخبرك، قال، لقد نزفتُ من أنفي نزيفاً شديداً، ولست أدري إن كان بالإمكان غسل هذا القميص، إرميه. وابتسم.

وسألته بعد أيام عن العمل. ممتاز، قال، وقال بأنهم سيزيدون راتبه. لكنني التقيت بيتي ويلكس في الشارع وقالت بأنهم جميعاً في العمل يتأسفون لتركه العمل، إذ كان وسيماً، قالت، بيتي ويلكس.

بعد ذلك بليلتين كنت راقدة على السرير لكنني لم أستطع النوم، وحَدّقت بالسقف. سمعت صوت اصطفاق سيارته وتَنصّتُ وهو يضع المفتاح في القفل ثم جاء عبر المطبخ. ثم دلفَ إلى البهو نحو غرفته وأغلق الباب

خلفه. نهضت . كان بإمكاني رؤية ضوء من تحت بابه ، فقرعت ودفعت الباب وقلت هل تحب فنجان شاي ساخن ، يا حبيي ، فأنا لا أستطيع النوم. كان منحنياً إلى الخزانة، فصفق أحد الأدراج واستدار اليّ ، أخرجي ، زَعقَ، أخرجي من هنا ، لقد قرفتك تتجسسين عليّ ، زعقَ . مضيتُ إلى غرفتي أرثي نفسي إلى أن نمت . لقد حطم قلبي تلك الليلة .

في الصباح التالي كان قد نهض وخرج قبل أن أستطيع رؤيته ، لكن هذا لم يخرجني عن طوري . كنت مزمعة منذ ذلك الحين على أن أعامله مثل نزيل في غرفة عندي ، إلاّ إذا أراد أن نكون أكثر من غريبين يعيشان معاً تحت سقف واحد .

عندما عدتُ في ذلك المساء كان قد أعدَّ العشاء. كيف حالك؟ قال ، وأخذ عني معطفي . كيف كان نهارك؟

قلت إنني لم أنم ليلة البارحة ، يا حبيبي . وعَدْتُ نفسي أن لا أثير الأمر وأنا لست بصدد إشعاركَ بالذنب، لكنني لست معتادة أن أخاطَب هكذا من قبل إبني .

أريد أن أريك شيئاً ، قال ، وأراني تلك المقالة التي كان يكتبها في مادة علم الإدارة المدنيةَ . كنت أعتقد أنها حول العلاقات بين الكونغرس والمحكمة العليا. (كانت الورقة التي أهلته لنيل جائزة عند التخرج!) . حاولت قراءتها وقررت عندها أن هذا هو الوقت المناسب . يا حبيبي ، أود أن أتحدث معك ، من الصعب تربية طفل على أشياء بالطريقة التي يقومون بها هذه الأيام ، وإنه من الصعب خصوصاً علينا نحن الذين نفتقد الأب في البيت ، لا وجود لرجل نلجأ إليه عندما نحتاجه . لقد كبرت الآن تقريباً لكنني مازلت مسؤولة وأشعر بأنني أستحق بعض الاحترام وأن تُراعي مشاعري كما حاولت أن أكون عادلة وصادقة معك . أنا أريد الحقيقة ، يا حبيبي ، هذا كل ما طلبته منك دائماً، الحقيقة . يا حبيبي ، والتقطتُ أنفاسي ، إفترضْ أن لديك طفل كلما سألته عن

شيء ، أي شيء ، أين كان أو أين سيذهب ، كيف يقضي أوقاته ، أي شيء ، أبداً ، إنه لم يقل أبداً الحقيقة ولو لمرة واحدة ؟ هذا الطفل الذي إذا سألته إن كانت تُمطر في الخارج ، سيجيبك أن لا ، الطقس جميل ومشمس ، وأخمّن أنه يضحك في سره ويعتقد انك عجوز جداً أو غبي جداً إلى درجة أنك لن ترى ملابسه المبللة . لماذا عليه أن يكذب ، أنت سوف تسأل نفسك ، ماذا سيستفيد ، أنا لا أفهم . أظل أسأل نفسي لماذا ، غير أنني لا أحظى بالجواب . لماذا ، يا حبيبي؟

لم يقل شيئاً ، ظل صامتاً ، وبعدها تحرك نحوي وقال سوف أريك . الركوع هو ما أقوله ، إن الركوع على الأرض هو ما أقوله ، قال ، هذا هو السبب الأول .

هرعتُ إلى غرفتي وأقفلت الباب . رحل في تلك الليلة ، أخذ أشياءه ، ما أراد أخذه ، ورحل . صَدّقْ أو لا تُصدّقْ انني لم أره بعد ذلك أبداً . رأيته عند تخرجه لكن كان هذا وسط عدد كبير من الناس المحيطين بنا . جلست مع الحضور المستمعين وراقبته يستلم شهادته وجائزة عن مقالته ، ثم سمعته يُلقي خطبته وصَفّقتُ مثل الجميع .

ذهبت إلى المنزل بعد ذلك .

لم أره أبداً . أوه ، لقد رأيته بالطبع على شاشة التلفزيون كما رأيت صوره في الجرائد .

اكتشفت انه انضمَ إلى رجال البحرية وبعدها سمعت من أحدهم أنه ترك البحرية والتحقَ بجامعة ناحية الشرق ثم تزوج تلك الفتاة وانخرطَ في السياسة . بدأتُ أرى اسمه في الجرائد . عثرتُ على عنوانه وكتبتُ له رسالة كل بضعة شهور ، ولم يكن هنالك من رَد أبداً . سعى لأن يكون حاكماً وتمَ انتخابه ، وأصبح مشهوراً الآن . عندها بدأتُ أقلق

لقد راكمتُ كل هذه المخاوف . صرتُ خائفة ، وتوقفتُ عن مراسلته

طبعاً وبعدها رجوتُ أن يعتقد بأنني مت. انتقلت إلى هنا. عملتُ على أن يؤجروني المكان من دون رقم مسجل. وبعد ذلك كان عليّ أن أغير اسمي. إذا كنتَ رجلاً صاحب نفوذ وقوة وأردتَ العثور على أحد، فبإمكانكَ ايجاده، فلن تكون مسألة بهذه الصعوبة.

ينبغي أن أكون جد فخورة لكنني خائفة. رأيت الأسبوع الماضي سيارة على الشارع وبداخلها رجل أعرف انه كان يراقبني، فرجعتُ فوراً وأقفلت الباب. قبل عدة أيام رَنَ جرس هاتفي ورَنَ بشكل متواصل، وكنت مستلقية على السرير. تناولت السماعة لكن أحداً لم يُجب على الطرف الآخر.

أنا عجوز. أنا أمه. ينبغي أن أكون أكثرَ الأمهات تباهياً في كل الدنيا، لكنني خائفة وحسب.

أشكركَ لكتابتك. أردتُ أن يَطلّع أحد ما وأن يعرف. أنا خجلة جداً.

وأردتُ أيضاً أن أسألك كيف حصلتَ على اسمي وعرفتَ العنوان لتراسلني. لقد كنتُ أصلي أن لا يعرف أحد، لكنكَ عرفت. لماذا عرفت؟ أرجوك قُلْ لي لماذا؟.

المخلصة،

نادين غورديمر
Nadine Gordimer (١٩٢٣ -)

نادين غورديمر قاصّة وروائية جنوب أفريقية، نالت جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩١.

تناولت في معظم أعمالها التوترات الأخلاقية والنفسية الناتجة عن الانقسام العنصري في بلدها.

شاركت في تأسيس مجلس كُتّاب جنوب أفريقيا، وأصرّت على عدم الخروج باتجاه المنفى الاختياري حتّى إبّان ذروة النظام العنصري الأبيض.

ولدت نادين غورديمر لأسرة ميسورة في سبرينغز، ترانسفال، وهي بلدة مناجم تقع خارج جوهانسبرغ، حيث جعلت منها مسرح أحداث روايتها الأولى «الأيام الكاذبة» ١٩٥٣ . والدها جواهري يهودي جاء من لاتفيا وأمها من أصل بريطاني. شهدت نادين غورديمر ومنذ طفولتها على الأقلية البيضاء وكيف عملت، على نحو مضطرد، للانتقاص من حقوق الأغلبية السوداء. تلقت تعليمها في مدرسة رهبانية وأمضت سنة واحدة في جامعة ويتواتر ستاند ، جوهانسبرغ دون أن تحصل على شهادة.

بينما اضطّرت لملازمة البيت بضغط من أمٍ كانت تتخيّل بأنها مريضة بضعف القلب؛ بدأت غورديمر الكتابة وهي في التاسعة من عمرها ، ونشرت قصتها الأولى «أيّها الغد عُد ثانية» في قسم الأطفال في مجلة «فورم Forum» التي تصدر في جوهانسبرغ . وعند بلوغها العشرين كانت لديها عدة قصص منشورة في غير مجلّة محليّة ، وعام

١٩٥١ قبلت الـ «نيويوركر» أن تنشر لها قصة ثم استمرت بفعل هذا منذ ذلك الحين.

بداية من مجموعتها القصصية الأولى «وجهاً لوجه» ١٩٤٩، والتي لم يرد ذكرها في بعض سجلات أعمالها ، عملت نادين غورديمر على كشف وإظهار النتائج النفسية لحالة الفصل العنصري داخل المجتمع . وتبع هذه المجموعة مجموعة «صوت الأفعى الناعم» ١٩٥٢ ، ثم رواية «الأيام الكاذبة» ١٩٥٣ ، والتي بُنيت بشكل أساسي على الحياة الشخصية للكاتبة . ثم كان أن نشرت عدة أعمال خلال الخمسينات والستينات من القرن الماضي ومن ضمنها : «عالم الغرباء» ١٩٥٨، و«مناسبة للتحاب» ١٩٦٣، و «عالم البرجوازية المتأخّر» ١٩٦٦ . تصدّت غورديمر في هذه الروايات لدراسة علاقات السيّد - الخادم التي شكّلت ملامح الحياة في جنوب أفريقيا ، وكذلك تعمّقت في وضعية جنون الاضطهاد الجنسية والروحية الخاصّة بالاستعمار ، والليبرالية الضحلة والسطحية لمواطنيها البيض أصحاب الامتيازات .

حظيت نادين غورديمر باهتمام عالمي مبكّر بسبب من قصصها القصيرة ورواياتها . فرواية «الصّياني»(١) ١٩٧٤، قارنت بين عالم من الصناعيين الأثرياء البيض من جهة، وشعائر ومعتقدات الزولو من جهة مقابلة. بينما كتبت رواية «إبنة بيرغر» ١٩٧٩، أثناء انتفاضة سويتو Soweto وآثارها الكارثية: ففي قصة الرواية ثمة ابنة تكتّف علاقتها بأبيها الذي يقاسي ويعاني جرّاء الحركة المضادة للفصل العنصري. أما «قوم جولي» ١٩٨١؛ فكانت رواية تستشرف المستقبل وتدور عن عائلة بيضاء فرّت من حرب مزّقت مدينة جوهانسبرغ باتجاه الريف، حيث بحثوا عن ملاذٍ لهم برفقة خادمهم الإفريقي في قريته.

تضمّنت المجموعات القصصية المبكّرة لنادين غورديمر موضوعة شبه واحدة ووحيدة؛ تلك المتعلّقة بالمحيط التاريخي العنصري الذي قسّم المجتمع. ومن هذه المجموعات : «ستة أقدام من البَلَد» ١٩٥٦، و«ليس للنشر» ١٩٦٥ و «رفاق ليفينغستون» ١٩٧١ . ففي قصة «تاريخ شفهي » من مجموعة «عناق جندي» ١٩٨٠ ، يكون زعيم القرية قد اختار جانب القامعين والظالمين، لكنه، وإثر تدمير قريته، يقدم على الانتحار. إنّ نادين غورديمر تختبر وببرود أفعال شخصياتها من زعماء القضايا وأنصارها الفاعلين، رابطةً الأحداث التراجيدية بالتقليد الطويل للسياسة الاستعمارية، ففي خلفية القصة تندلع حرب الاستقلال في زيمبابوي (١٩٦٦ - ١٩٨٠).

عاشت نادين غورديمر في جوهانسبرغ منذ عام ١٩٤٨، وقامت بالتدريس في عدة جامعات أميركية خلال الستينات والسبعينات . كتبت عدة كتب غير أدبية عن موضوعات خاصة بجنوب أفريقيا ، كما أنجزت أفلاماً تلفزيونية وثائقية، وبالتعاون مع إبنها هوغو كاسيرير عملت في الفيلم التلفزيوني «اختيار العدالة : آلان بويساك».

في روايتها «بندقية البيت» ١٩٩٨ سبرت غورديمر مجموعة التركيبات المعقّدة للعنف الذي خلّفه مجتمع الفصل العنصري السابق، وذلك من خلال المحاكمة لجريمة.

من أعمال نادين غورديمر ، إضافةً إلى ما ذُكر سابقاً :

آثار أقدام يوم الجمعة وقصص أخرى ، ١٩٦٠، الكتابة في جنوب أفريقيا اليوم ، ١٩٦٧ ـ بالاشتراك مع إل. أبراهامز ـ ضيف الشرف ، ١٩٧٠ ـ المفسّرون السود ، ١٩٧٣ ـ شيء من يوم الإثنين بالتأكيد ، ١٩٧٦ ـ ليس من مكان شبيه ، ١٩٧٩، ـ عُشّاق البلدة والبلاد ، ١٩٨٠ـ شيءٌ هناك في الخارج ، ١٩٨٤ ـ أزمان : تحت الفصل

العنصـري، ١٩٨٦ ـ رياضـة الطبيـعـة ، ١٩٨٧ ـ الإيماءة الكاملة ، ١٩٨٨ ـ قـصـة إبنـي ، ١٩٩٠ ـ جـرائم الـوعي ، ١٩٩١ ـ إقفـزْ ، وقصص أخـرى ، ١٩٩١ ـ لماذا لم تكتب؟ ، ١٩٩٢ ـ لا شيء يرافقني ، ١٩٩٤ ـ الكتابة والوجود ، ١٩٩٥ ـ الشاحنة الخفيفة ، ٢٠٠١.

(١) Conservationist : الصيّاني: المنادي بضرورة صيانة الموارد الطبيعية . (المورد).

إجلال

إقرأ شفتيّ.

إقرأهما لأنني لا أتكلّم. أنت تجلسُ هناك، وعندما يتمايل القطار تبدو وكأنّك تنحني للأمام لكي تسمع. لكنني لا أتكلّم.

لو كان بمقدوري العثور عليهم لطالبتُ بالنصف الآخر من المال الذي كنتُ سأناله عندما أتممتُ العمل، غير أنهم رحلوا. أنا لا أعرف أين أبحث عنهم. أنا لا أعتقد أنهم هنا، بعد الآن؛ فهُم في بَلَد ما آخر، إنهم يتنقلون طوال الوقت.. وبهذه الطريقة يجدون رجالاً مثلي. نحنُ نغادرُ بلداننا بسبب الإطاحة بالحكومات، والتجنيد الإجباري لصالح الجانب الخطأ؛ إذ ليس ثمة عَمَل، ليس ثمة خبز أو زيت في المتاجر، وحين نعبر الحدود ينقلوننا إلى حدود أخرى، وأخرى. ما وجهتك الأخيرة؟ نحن لا نعرف. نحن لا نعرف أين بمقدورنا أن نقيم، أين نكون بحيث لا نُنقل إلى مكان آخر، من خيام مُعسكر إلى أخرى في معسكر في بَلَد لا تستطيع أن تحوزَ فيه على أوراق ثبوتية.

أنا لا أتكلّم على الإطلاق.

هُم يجدوننا هناك، في واحد من تلك الأماكن ـ لقد عثروا عليّ وأنقذوني. هُم يستطيعون فِعْل أي شيء. لقد نقلوني إلى هنا بأوراق ثبوتية

وبإسم منحوني إيّاه؛ لقد دفنتُ إسمي، ولن يقوم أحدٌ بالحَفْر واستخراجه لي. أعلموني بما ينبغي عليّ أن أفعله ودفعوا لي نصف المبلغ على الفور. أكلتُ واشتريتُ ثياباً لأرتديها وكان لي غُرفة في فندق حيث يقرأ النُزلاء قوائم الطعام لثلاثة مطاعم مختلفة قبل أن يقرر الواحد منهم أين سيتناول وجبته. كان هنالك صابون شامبو بالمجّان في الحمّام ومفتاح صندوق المحفوظات الخاصّة حيث احتفظتُ في داخله بزجاجة خَمْر بدلاً من النقود.

لقد جهّزوا لي كل شيء. تعقبّوهُ عدة شهور وعلموا متى ذهب ويذهب إلى هناك، في أي وقت ـ ورُغم أنه كان رَجُلاً مهماً، إلاّ أنه يذهبُ بصحبة زوجته في تجوالهما الخاص دون مرافقة حُرّاسه الرسميين، وذلك لأنه أحبَ أن يبدو كأي شخص عادي أو أنه أراد أن يكون شخصاً عادياً. لقد علموا بأنه لم يفهم بأنّ ذلك لهو أمرٌ يستحيل أن يتوفّر له؛ أن يكون شخصاً عادياً، وهذا بالضبط ما أتاح لهم أن يدفعوا لي من أجل أن أفعلَ ما دفعوا لي لكي أفعله.

أنا لا أحد؛ ليس من بَلَد يدرجني في الإحصاء الرسمي لسكانه، كما أنّ الإسم الذي منحوني إيّاه لا وجود له: لا أحد قام بارتكاب فعْلٍ ما تم فعلهُ. أما هو، فلقد اقتطع وقتاً لنفسه واصطحب زوجته، ممسكاً بذراعها، وذهبا إلى مطعم بأبواب مزدوجة لإبقاء البَرْد خارجاً؛ ذاك المطعم الذي ارتاداهُ أسبوعاً إثر أسبوع، ثم تحوّلا بعد ذلك نحو دار للسينما ـ رغم أنهم أخبروني بأنهما يعودان دائماً إلى البيت. انتظرتُ. شربتُ زجاجة بيرة واحدة في حانة ما، هذا كل ما في الأمر، وعدتُ إلى موقعي. لم يَبدُ على الناس بينما يغادرون دار السينما بأنهم تبيّنوا شخصيته لأن الناس في هذا البلد يُحبّون أن يدعوا لرؤسائهم فرصة أن يكونوا عاديين. لقد اصطحب زوجته، أسوةً بأي مواطن عادي، وتوجّها نحو تلك الزاوية التي تؤدي إلى المدخل الهابط باتجاه قطارات الأنفاق، وعند توقفه منتظراً في الخلف تاركاً لها أولوية المرور قبله، قمتُ بالفعل. قمتُ به تماماً مثلما دفعوا لي من أجل القيام بذلك، ومثلما اختبروا قُدرتي على

التصويب لفعل ذلك، في مؤخرة الجمجمة تماماً. وفي لحظة أن سقط ولحظة أن استدرتُ للركض، قُمتُ بالفعل ثانيةً، مثلما دفعوا لي لأجل ذلك، ابتغاء التأكُد.

هي ارتكبت خطأ أن هوت عل ركبتيها باتجاهه قبل أن تنظر للأعلى لترى من الذي فعل هذا. كل ما استطاعت أن تخبر به الشرطة، والصحف، ورجال التحقيق، هو أنها رأت ظَهْرَ رجل في ثياب داكنة، سترة جلدية، يرتقي درجات السلّم المؤدية إلى الشارع الجانبي. هذه المدينة تحديداً هي واحدة من المدن ذات المباني الشاهقة والأزقة المعتمة. هي لم ترَ وجهي على الإطلاق. هي الآن وبعد سنوات (قرأتُ هذا في الصحف) ما تزال تقول للناس كيف أنها لم ترَ الوجه أبداً، لم ترَ وجه مَن فعل ذلك أبداً، ولو أنها نظرت للأعلى فقط قبل ذلك بثوان قليلة لكان بإمكانهم أن يعثروا عليٍّ. إنّ اللاأحد الذي فعل ذلك سوف يكوَن أنا. إنها تفكّر طوال الوقت بمؤخرة رأسي في القُبعة الداكنة (لم تكن داكنة في الحقيقة، بل ذات تربيعات خضراء فاتحة وبُنيّة، قُبعة ثمينة اشتريتها بتلك النقود، والتي ألقيتُ بها فيما بعد في القناة وبداخلها حَجَر). إنها تفكّر برقبتي، بأثر العَضّة في رقبتي والتي كان بإمكانها أن تراها بين القُبعة وياقة السترة الجلدية (لم أستطع رميها في القناة بل قمتُ بصبغها لتغيير لونها). إنها تفكّر في لمعة السترة الجلدية بين كتفيّ تحت بُريكات الضوء لمصابيح الشارع التي تنتصب أعلى درجات السلّم، وفي قدميّ تتحركان بأقصى سرعة واختفائي بينما تُطلق صراخها.

اعتقلت الشرطة امرأة من مروّجات المخدرات التقطوها من الزقاق عند أعلى الدرجات. لم تستطع أن تؤكد إنْ كان هو أم لا لأن لم يكن لديه وجهاً حتّى تتذكره. وكذلك كان الأمر نفسه مع آخرين جمعتهم الشرطة من الشوارع وسجلات المجرمين وأصحاب السوابق السياسية؛ لا وجه. لذا؛ فليس ثمة ما أخشاه. كنتُ طوال الوقت أُدفَع لأن أخرجَ من بَلَد لأدخل بلداً آخر، كنتُ

خائفاً من عدم حيازتي لأوراق ثبوتية، خائفاً من خضوعي للاستجواب، خائفاً من أن أجوع، غير أنني الآن لا أملك ما أخافُ عليه. ما زلتُ أملكُ ما لا أخشاه. أنا لا أتكلّم.

بحثتُ في الصُحف عمّا كُتب فيما يتعلّق بما حدث؛ فالتحقيق لم يُغلق، وما تزال الشرطة والناس يواصلون البحث. هذا البلد بأكمله يواصلُ البحث. قرأتُ جميع النظريات. أحياناً، كما الحال الآن، في قطار الأنفاق، أتطلّع من خلف أحد الرُكّاب لأقرأ في جريدته نظرية جديدة. إنها مؤامرة إيرانية، بسبب عداء هذا البَلَد لواحدة من الحكومات هناك. إنها محاولة اعتداء جنوب أفريقية للإنتقام من موقف المقاطعة الذي يتخذه هذا البلد ضد عنصرية بعض الحكومات هناك، في ذلك الوقت. بمقدوري أنا أن أقول عن مَن فعل ذلك، غير أنني لا أقدر أن أقول عن السبب. فَهُم عندما دفعوا لي النصف الأول من المبلغ ـ هكذا، على الفور! ـ لم يخبروني عن السبب كما أنني لم أسأل بدوري. لماذا عليّ أن أسأل، أيّة حكومة، مع أي طرف، في أي اتجاه يمكن أن يقودني ذلك كله؟ لقد كانوا الوحيدين الذين وفّروا لي شيئاً ما.

حينذاك حصلتُ على نصف ما وُعدْتُ به فقط. لم يتبق الكثير بعد خمس سنوات ـ ستكتمل السنوات الخمس في الشهر القادم. أدّيت بعض الأعمال، بين الحين والآخر، كي لا يتساءل أحد عن مصدر النقود التي أسدّد بها أجرة غرفتي وغير ذلك من الأمور. عملتُ في حلبات سباق الخيول، وفي النوادي الليلية مرةً أو مرتين. عملتُ في أماكن حيث لا يسجّلون أسمك لدى أي من مكاتب العمل. إني أفكّر بتلك النقود لو أني حصلتُ عليها كما وعدوني وماذا سأفعل بها؟ أن أذهب بعيداً، إلى مكان آخر؟ عندما أفكّر بالذهاب إلى بَلَد آخر، كما فعلوا هُم، مخرجاً عند الحدود الأوراق الثبوتية وإسمَ لا أحد الذيّ منحوه لي، مظهراً وجهي ـ

أنا لا أتكلّم.

أنا لا أرافق أحداً. لا أرافق حتّى امرأة. كنت أتلقى عروضاً في تلك الأماكن حيث عملتُ، لكي أقوم بمهمات مثل نَقْل بضائع مسروقة، وتسليم مخدرات: بدت الناسُ أنها تشمُّ فيّ شيئاً كأنني كنت من خلاله أجعلُ نفسي متوفراً لأغراضهم. غير أنني لست كذلك! فأنا لستُ هنا، في هذه المدينة. لم ترَ هذه المدينة وجهي على الإطلاق، إنما هو ظَهْرُ رجُل يثبُ صاعداً الدرجات المؤدية إلى الزقاق بالقرب من محطة الأنفاق. يُقال، كما أعرف، أنك تعود إلى مشهد ما كنت قد فعلته فيه. أنا لم أقترب من هناك أبداً، أنا لم أمر عبر تلك المحطة، أنا لم أعد أبداً إلى تلك الدرجات، فهي عندما أطلقت صرختها من ورائي حين اختفيتُ، كنت، لحظتها، قد اختفيت للأبد.

لم أستطع تصديق أنهم لن يدفنوه في مقبرة، عندما قرأت ذلك في الصحف. لقد وضعوه في جزء من حديقة عامة مقابل الكنيسة القريبة من محطة الأنفاق. إنه مكانٌ عادي مألوف ترى فيه بضعة أشجار قديمة يتقطّر منها المطر فوق الممرات المفروشة بالحصى، تماماً عند أحد الشوارع الرئيسية. هناك حَجَرٌ منقوش عليه ودرابزين واطئ، وفقط. يجيء الناس ساعة غدائهم، يجيء الناس أثناء خروجهم للتبضُّع، يجيء الناس بينما يصعدون من ذلك النفق، بينما يخرجون من دار السينما، ثم يسيرون بتؤدة فوق الممرات متوجهين إلى هناك وليقفوا، حيث هو. إنهم ينحنون ويضعون زهوراً.

كنتُ هناك. كنتُ قد رأيت. أنا لا أبتعد. إنه مكانٌ كبقية الأماكن الأخرى، بالنسبة لي. في كل مرة أذهب إلى هناك، ملتحقاً بالآخرين وبجَلَبة الأقدام على الممر، كنتُ أرى شباباً يذرفون الدموع ويضعون زهورهم، وأحياناً يفردون أطباق ورق تبدو عليها سطورٌ مثل القصائد (أنا لا أستطيع قراءة هذه اللغة جيداً)، وكنتُ أرى التحقيق ما يزال جارياً، ولن ينتهي حتّى يعثروا على الوجه، حتى يتّضحُ ظَهْرُ لا أحد وينكشف. ذلك كله لن يحدث.

أنا الآن أفعلُ كما يفعل الآخرون. هي الوسيلة لأن أبقى آمناً، لأن أبقى آمناً تماماً.

اشتريتُ اليوم باقة ورد أحمر رخيصة الثمن ، لُفّت بشريط مطاط مَرن خاص بالجروح لتجميع الأوراق المدعوكة والتويجات الرطبة، ووضعتهَا هناك، أمام الحجر المنقوش، خلف الدرابزين الواطئ، حيثُ تمّ دَفْنُ إسمي معه.

أنجيلا كارتر

Angela Carter (١٩٤٠ ـ ١٩٩٢)

ولدت أنجيلا كارتر عام ١٩٤٠ . درست الانكليزية في جامعة بريستول Bristol وأمضت سنتين في اليابان، وكانت بين ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ زميلة في قسم الكتابة الإبداعية في جامعة شفيلد Sheffield.

عملت كأستاذة زائرة في برنامج الكتابة ـ جامعة براون Brown ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ ، وككاتبة مقيمة في جامعة آديلايد Adelaid جنوب أستراليا عام ١٩٨٤.

نشرت روايتها الأولى «رقصة الظل» عام ١٩٦٥، وأتبعتها برواية «متجر الألعاب السحري» حيث نالت عليها جائزة جون أوين رايز John Llewellyn Rhys Prize ، ثم «إدراكات عدّة» الحائزة على جائزة سومرست موم Somerest Maugham Award ، و«أبطال وأوغاد»، و«حب»، و«آلات الرغبة الشيطانية للدكتور هوفمان» ، و«شغف حواء الجديدة» ، و«ليال في السيرك» .

كما قامت أنجيلا كارتر بنشر مجموعتين من القصص القصيرة قبل هذه (ڤينوس السوداء) : «ألعاب نارية» و«حجرة النوم الدموية» ، إضافة إلى عملين لا ينتميان إلى السرد الإبداعي.

كتبت أنجيلا كارتر ، بالتعاون مع نيل جوردان، النص الخاص بالفيلم السينمائي «في صحبة الذئاب».

القبلة

الشتاءات في آسيا الوسطى قارسة تخترق العظام ، بينما الأصياف الدبقة كريهة الرائحة تجلب معها الكوليرا ، والإسهال ، والحشرات. لكنّ الهواء ، في شهر نيسان / إبريل ، يهبّ بلطف مثل اللمسات على الجلد الداخلي للفخذ ، كما أنّ الرائحة الناتجة عن جميع الأشجار المُزهرة تغمرُ هذه المدينة خانقةً حلقها ، وقد تشبّعت بنفحات المجارير والبالوعات.

لكل مدينة منطقها الداخلي الخاص بها . تصوّروا مدينة رُسمت بأشكال هندسية مستقيمة، وبأقلام أخرجت من علبة تلوين لطفل لتكون صفراء داكنة، وبيضاء ، وبلون الطين الناضج الكالح . حينذاك؛ تبدو الشرفات الواطئة والمغلقة للبيوت أنّها تخرجُ من الأرض المبيضّة وزهرية اللون وكأنّها تولد منها، وليست مُشادة فوقها. ثمّة غُبار رملي ثقيل ومقبض يُغطّي كل شيء، مثل الغبار الذي تخلّفه أقلام الباستيل على أصابعكم.

وبالمقابل من هذه الشحوبات البيضاء، فإنّ السطوح القشرية للقرميد المزجّج ، الذي يكسو الأضرحة القديمة ، تعملُ على زغللة العيون . يتحوّل الأزرق الإسلامي المرتجف إلى اللون الأخضر بينما تُمعنون النظر إليه . وأسفل إحدى القباب تجري التبدّلات والتغيّرات على اللون اللازوردي ، بينما ترقدُ عظامُ تيمورلنك ، سوط آسيا ، داخل ضريحٍ من حجر اليشب الكريم . نحنُ

في زيارة مدينة خُرافية أصيلة . نحن الآن في سمرقند .

وعدت الثورة الفلاحات الأوزبكيات بثياب من حرير ، وما كان لهذا الوعد ، على الأقل ، أن يتحقّق . فلقد ارتدينَ أغشيةً مهلهلة رديئة النوع من الساتان ، زهرية اللون وصفراء ، حمراء وبيضاء ، سوداء وبيضاء ، حمراء ، خضراء وبيضاء : أردية مبقّعة بألوان زاهية تلتمع بشدّة مثل خداعٍ بَصَريّ ، كما قُمنَ بتزيين أنفسهن بكثير من المجوهرات المصنوعة من زجاج أحمر .

تبدو النسوة عابسات ومقطّبات على الدوام ، وذلك لأنّهن رسمن خطّاً سميكاً أسود على امتداد جباههن بحيث يصلُ ما بين الحاجبين على الطرفين من غير فاصل . إنّهن يؤطّرن عيونهنّ بالكحل ، فيبدون محدّقات . ويشبّكن شعرهن الطويل بدزينتين أو ثلاث من الحلقات . الفتيات الصغيرات يعتمرن أغطية رأس صغيرة من المخمل ، مطرّزة بخيوط مذهّبة وبالخرز . أمّا النسوة الأكبر سنّاً ؛ فيغطين رؤوسهن بأوشحة مزدوجة من القطن بأزهار مرسومة ؛ وشاحٌ مربوطٌ ومحكم على الجبين ، ووشاحٌ معلّق بارتخاء يتهدّل على الكتفين . لم تضع واحدة منهن حجاباً لمدّة ستين عاماً .

تسيرُ النسوةُ بعزمٍ هادف وكأنّهن لا يعشن في مدينة متخيّلة . لا يعرفن بأنّهن أنفسهن بالعمائمِ على رؤوسهن ، وبستراتهن من جلد الخراف ، مجرّد مخلوقات استثنائية في عين الأجنبي ، تماماً مثلما هو أحاديّ القرن (1) . وبأنّ وجودهن الراهن ، بكل حليّهن الصغيرة المتألقة وحضورهن الدخيل البريء ، إنّما يتناقض مباشرة مع التاريخ . إنهن لا يعرفن ما أعرفه عنهن . إنّهن لا يعرفن بأنّ هذه المدينة ليست العالم الداخلي . كُلّ ما يعرفنه عن العالم هو هذه المدينة ، جميلة كخدعة ، حيث أقواس قزح تنمو في القنوات . في داخل بيت

(1) UNICORN أحاديّ القرن : حيوان خرافي له جسم فرس وذيل أسد وقرن وحيد في وسط جبهته . (المورد) .

زجاجي ثمّة ببغاء أخضر يدفع بلطف قضبان قفصه المصنوع من أغصان مجدولة .

للسوق رائحة حادّة خضراء . فتاةٌ بحاجبين مخطّطين بالأسود ترشُّ الماء من زجاجة على كومة من الفجل . ليس بإمكانكم ، في هذا الوقت المبكر من السنة ، أن تشتروا سوى فاكهة الصيف الماضي المجفّفة ـ المشمش ، الدرّاق ، الزبيب ـ ، ورمّان قليل نادر متغضّن القشرة ، وقد خُزّن داخل النشارة أيام الشتاء ، وها هو يُعرض الآن ليكشف ورقُ الصنفرة المتبقّي مع النشارة كم كان وكر التخزين رطباً . من خصائص سمرقند المحليّة نوات المشمش المملّحة ، فهي أطيب مذاقاً حتّى من الفستق .

ثمّة امرأة عجوز تبيع زنابق اللوف [1] . جاءت هذا الصباح من الجبال ، حيث طرحت الخزامى البريّة أزهارها مثل فقاقيع متنفخة من الدم ، بينما السلاحف تُعشّشُ ببراءة بين الصخور . تغمسُ العجوز قطعة خبز في كوب من مخيض اللبن كوجبة غداء ، وتمضغها ببطء . عندما تفرغ من بيع زنابقها ، سوف تعود إلى المكان حيث تنمو .

تجاهدُ العجوزُ لتقيم في الزمن كما يبدو . أو كأنّها تنتظرُ شهرزاد لكي تعي وتدرك بأنّ فجراً أخيراً قد حان ، وأنّ الحكاية الأخيرة بكلّ ما تضمنته قد غرقت في الصمت . عندها ؛ ربُما تختفي بائعة الزنبق متلاشية .

ثمّة معزاة تقضم وتلوك ياسميناً برياً بين خرائب الجامع الذي قامت ببنائه زوجة تيمورلنك الجميلة .

شرعت زوجة تيمورلنك ببناء هذا الجامع ليكونَ مفاجأة له ، بينما كان بعيداً يخوضُ حروبه . لكنّها ، عندما بلغها نبأ رجوعه الوشيك ، لم تكن القنطرة الأخيرة قد أنجز بناؤها . ذهبت إلى المهندس على الفور ورجته أن

---

(١) ARUM اللوف : نبات من فصيلة القلقاسيات أو اللوفيات . (المورد) .

يُسرع، غير أنّ المهندس أخبرها بأنّه سوف يُنجز العمل في الوقت المحدّد إذا ما منحته قُبلة . قُبلة واحدة ، قُبلة واحدة فقط .

لم تكن زوجة تيمورلنك مجرّد امرأة جميلة جداً وطاهرة جداً ، بل كانت ذكيّة جداً أيضاً . توجّهت إلى السوق ، واشترت سلّة من البيض ، ثم سلقته وصبغت دزّينة منه بألوان مختلفة . استدعت المهندس إلى القصر ، وأرته السلّة وطلبت منه أن يختار أي بيضة يحبّها ويأكلها . فتناول بيضة حمراء. ما طعمها ؟ مثلها مثل أي بيضة . كُلْ بيضة أخرى .

فتناول بيضة خضراء .

ما طعم تلك البيضة ؟ مثلها مثل البيضة الحمراء. جرِّبْ ثانيةً .

فأكل بيضة وردية اللون .

كُلّ بيضة لها طعم أي بيضة أخرى غيرها ، إذا ما كانت طازجة ؛ قال المهندس .

ذلك هو الأمر ! قالت له . كُلٌّ واحدة من هذه البيضات تبدو مختلفة عن الأخرى ، لكنّها جميعاً لها الطعمُ نفسه . لذا ؛ بإمكانك أن تقبّل أيّ امرأة من خادماتي تروقُ لك ، ولكن عليك أن تتركني وشأني .

حسنٌ جداً ، قال المهندس . لكنّه سُرعان ما عاد إليها حاملاً ، هذه المرّة، صينية عليها ثلاث طاسات خمر، تدفعكم للاعتقاد بأنّها جميعها كانت مملوءة بالماء.

إشربي من كلّ واحدة من هذه الطاسات، قال .

تناولت جرعة من الطاسة الأولى ، ثمّ من الطاسة الثانية ؛ لكنّها عندما تناولت جرعة كاملة من الطاسة الثالثة أخذت بالسعال والغمغمة ، لأنّها لم تكن تحتوي ماءً . . بل كانت مليئة بالفودكا .

هذه الفودكا وهذا الماء يتشابهان تماماً ، غير أنّ لكلٍّ منهما طعمه المختلف تماماً ، قال المهندس. وهذا هو الأمر نفسه بالنسبة للحب .

بعدها ، قامت زوجة تيمورلنك بتقبيل المهندس على فمه . فعاد إلى الجامع ، وأكمل بناء القنطرة في اليوم نفسه الذي دخل فيه تيمورلنك المظفّر سمرقند بجيشه وراياته وأقفاصه المليئة بملوك أسرى . ولكن ، عندما ذهب تيمورلنك لزيارة زوجته ، استدارت مبتعدة عنه ، لأنّ ليس من امرأة تعودُ إلى جناح الحريم بعد تذوّقها للفودكا . قام تيمورلنك بضربها بالسوط إلى أن أخبرته بأنّها قبّلت المهندس ، فأرسل جَلاّديه على الفور إلى الجامع .

شاهد الجلاّدون المهندسَ واقفاً فوق القنطرة ، فأسرعوا صاعدين الدرجات بخناجرهم المسلولة ، لكنّه عندما سمعهم قادمين ، نبتت له أجنحةٌ وطار بعيداً إلى بلاد فارس .

هذه قصةٌ ذاتُ أشكال بسيطة وهندسية وبألوان غامقة مأخوذة من صندوق أقلام التلوين لطفلٍ ما . إنّ زوجة تيمورلنك هذه في القصة سوف ترسم خطّاً جانبياً أسود على امتداد جبينها ، وتثبّت شعرها في دزينات ودزينات من الحلقات الصغيرة ، مثلها مثل أي امرأة أوزبكية . سوف تشتري فجلاً أحمر وأبيض من السوق من أجل زوجها . ربُما تكونُ قد تدبّرت رزقها في السوق بعد أن هربت منه . ربُما تكون تبيع الزنابق هناك .

أنابيس نِن
ANAIS NIN (١٩٠٣ - ١٩٧٧)

- تُعتبر جزئياً من أصل إسباني لكنها، بالإضافة إلى هذا، تتحدّر من سلالة كوبية وفرنسية ودنماركية.
- ولدت عام ١٩٠٣ وأمضت طفولتها في عدّة مناطق في أوروبا. ثم غادرت باريس في عامها الحادي عشر، لتنتقل وتعيش في الولايات المتحدة الأميركية.
- عادت فيما بعد إلى باريس حيث درست علم النفس على يد أوتو رانك. وأقامت علاقات متميزة مع كُتّاب وفنانين معروفين جيداً مثل هنري ميللر ولورنس داريل. وكتبت سلسلة روايات وقصص قصيرة.
- نشرت كتابها الأول في الثلاثينات.
- تكشّفت قيمة وأصالة أسلوبها في بواكير أعمالها، ولكن، وكما هو الحال غالباً مع الكتّاب الطلائعيين، فإنّ انتشارها الواسع تطلب وقتاً.
- كان الانتشار العالمي لأجزاء «اليوميات» سبباً لكسبها مزيداً من المعجبين في عديد من بلدان العالم، وبخاصة في أوساط الشباب والطلاب.
- نُشرت كتبها، بالإضافة إلى فرنسا، في كل من ألمانيا، وإيطاليا، وهولندا، والدول الاسكندنافية، وإسبانيا، واليابان، والولايات المتحدة.
- عملت لبعض الوقت، في سنواتها الأخيرة، كمحاضر في جامعات أميركا.
- نالت عام ١٩٧٣ درجة الدكتوراة الفخرية من كلية الفنون

في فيلادلفيا، كما انتخبت عام ١٩٧٤ لتكون عضواً في المؤسسة الوطنية للفنون والأبحاث.

ـ من أعمالها : «القلب ذو الفجوات الأربع»، و«أطفال القطرس» و«جاسوس في منزل الحب»، و«بيت المحرمات» و«شتاء خادع».

ـ توفيت عام ١٩٧٧.

الطفلة التي ولدت من الضباب

السير باتجاه النهر . السير عبر حلقات الأطفال الذين يلعبون . السير تحت قنطرة عيون الرجال المتسكّعين . السير بين مُزق الجرائد المشرئبة إلى أعلى . السير فوق صفيح العلب المسطح . السير عبر نوافذ محطّمة (الأحجار ملقاة على أرضيات عارية) . السير على مداخل متفحّمة (لم تدم النار طويلاً، لم يكن ثمّة الكثير لتغتذي عليه) . عبور بقالات هزيلة، حانات نائمة، المرور بأناس جَوّفَ الجوعُ معدهم .

القرع على بيت صغير حيث يتدلّى الجرس من سلكه . يميل الباب بانحراف . تئن المفاصل ويبدو القفل ضعيفاً وبلا حراك .

لكن، خارج النوافذ العارية من الستائر، يَتدلّى الشَعر الطويل لامرأة سوف يكتب الرجال لها القصائد . العينان الزرقاوان الخضراوان «لإوندين» بعد أن بكت . الفم الكامل الكريبولي * لأبناء الجنوب . الضحكات . الأنف غير المعوج . وجهُ رقة مشرعة يرمي الشارعَ الصغير بترحاب ناعم . بسمة طفل تخسفها كآبة مبكّرة .

---

* الكريبولي : أحد مواليد جزر الهند الغربية أو أميركا اللاتينية المتحدّرين من أصل أوروبي أو إسباني بخاصة . خليط فرنسي - إسباني وزنجي . (المورد) .

ثمّة حفيف في الداخل. الحفيف لأجل منع ضيف الشرف من الخطو إلى الفوضى الحميمة. ثمّة من جاء ويجب إبعاد بعض الأشياء. وحال أن انفتح الباب، توقفت الفوضى، وسُمحَ لأحدهم بأن يرتقي درجات السلّم الخضراء إلى غرفة بجدران خضراء، مصابيح ملوّنة، كتب على الأرض، أسطوانات على الكنبة العريضة، موقدٌ مَطليّ؛ وليدخل إلى إشراقةِ ألوانٍ مفاجئة كالتي على قبعات مدغشقر.

غُطيّتْ النوافذ المُطلة على الشارع بمثلثات من ورق ملوّن. قد تكون الغرفة في مدينة عربية.

كانت «سارة» تجلس على كرسي واطيء. كانت قد خلعت كنزتها الخضراء لتعالج ثقباً فيها.

كان «دون» يداعب أوتار غيتاره بارتجال استعداداً لوصلته في النادي الليلي. كان شعر «دِون» الأسود متموّجاً بنعومة. سفحتْ بشرتة الداكنة تدرجّات نحاسية. كانت يداه على الغيتار حساستين ورفيعتين.

سأل: «هل تناولت بوني عشاءها؟».

وعندها دلفت الصغيرة «بوني» إلى الممر لتكون عيناها السوداوان المدوّرتان جداً أول ما يُرى منها. تجمّدت دمعتان على وجنتيها. دموع لأنها استحقّت العقاب من قبل والديها؛ لكنها، في منتصف انحدارها على وجهها، توقفت الدموعَ، لأنها وجدتهما ثانية. عقصتان من شعرها البني الداكن ويدان مشدودتان صوب الأم البيضاء والأب الأسمر للحصول على مواساة متساوية.

في بيرو ثمّة أغنية عن الإله الخزّاف. كان الإله الخزّاف يخبز رجالاً. خبز دفعة منهم ولم يحسب الوقت جيداً. وعندما أخرج الصينية وجد رجالاً بشعر أبيض، ورموش بيضاء وجلود ميّتة بيضاء. عيّنات باهتة تماماً؛ فوضعهم جانباً (هربوا إلى النرويج). كانت الدفعة الثانية أفضل قليلاً، لكن الثالثة خرجت

ممتازة وكانت الهنود. ومن المؤكد أنّ «بوني» ، كذلك، قد جاءت من قلب دفعة الخبيز الثالثة.

أنتجت الدفعة الأولى حب «سارة» الأول. ولَدٌ أشقر لم يحبها بعمق.

«إعتادَ الإبن تبييض شعره ليصبح ذهباً.»

كلُ من يتأذّى يذهب في رحلة طويلة.

أنتَ ترحل أقصى ما تستطيع بعيداً عن مكان الأذى.

رحلت «سارة» بعيداً عن الشَعر الذهبي إلى الشَعر الأسود مثلما رحل الرجال القدامى إلى غابات بِكْر ليدفنوا جرحاً. مثلما رحلوا إلى أراضٍ غريبة لينسوا وجهاً.

رحلت من أرض كلمات باردة إلى أرض كلمات دافئة. من أرض الانفصال إلى أرض الهدوء. من الضحالة إلى الغنى. لقد أبحرت من ميناء حيث تفوّهَ شاب بكلمات ولدت على حافة فمه الجميل إلى حيث خرجت كلمات من حفرة سالت منها دموع «بوني» عندما تَمَ عقابها.

ذهبت «سارة» في رحلة طويلة لأنّ ثمّة الكثير الكثير تريد أن تنساه. كلمات أمها: الإحساس بالجسد جريمة. وكلمات أبيها: الزنجي غير نظيف.

ذات مساء صيفي مشت في حديقة عامة مع «دون»؛ مع مَن لازمتهُ في اجتماع سياسي، وكانت تنصت إلى كلماته التي سمعت فيها نبرة الصدق. نبرة الكمال. كان الصوت غنيّاً لأنّ كل شيء كان فيه: الدم والعَصب، القلب والدفء، الفرح والألم، الجسد والقلب يخفقان معاً. حتى أدبه جاء من القلب بينما أزاح الأغصان بعيداً عن وجهها. بينما تحدَث عن الحب والكراهية. كانا صافيين لأنهما كانا إمّا الحب أو الكراهية. ليسا مُركَبيّن. ليسا نصف حب ونصف كراهية.

سمعت في تلك الحديقة العامة، وضباب صيفي كثيف يحيط بهما، صوت «دون» وأصوات مشاعرها عميقة مثلما هي الغابة.

عزلهما الضباب لكن هنا ثمّة عالم موجود. نفاهما الضباب : كائنان ضائعان. أحدهما تاهَ في ألم الخيانة من قبَل أحدهم؛ وتاهَ الآخر في خطر الموت والخزي والخيانة من قبَل الجميع لأنّه ولُدَ من دفعة الخزّاف الثالثة.

لعبا في البداية لعبة كالصغار. لعبة تضييع بعضهما والعثور على بعضهما في الضباب. وفي لحظة عندما اختبأ جيداً، ولم تستطع هي أن تقبض على خشخشة ضعيفة لوجوده بين الأشجار؛ عرفت أنها إذا لم تجده مرّة أخرى، فسوف تصير وحيدة.

وكانت «بوني» الطفلة الصغيرة التي ولدت من الضباب.

عندما انقشع الضباب، عندما جاء النهار؛ قُذفَتْ الحجارة عليهما، وكانت حياة «دون» في خطر، ـ من الأب، من الغرباءَ في الشارع، ولذلك لم يسيرا معاً أبداً، ولم تستطع هي أن تحمل «بوني» بأمان وتعبر بها الشوارع.

كانت اللعبة التي بدأت في الحديقة العامة وامتدت كحقيقة للأبد قد تحوّلت إلى خطر يومي يهدّد بالضياع.

سيقول دون كل يوم : «حان الوقت كي أذهب.»

ستقول سارة: «أعطني قليلاً من الفكّة لأركب الحافلة.»

سيقول دون : «سأقابلك في المطعم.»

هل سيراها ؟ هل ستعثر عليه ؟ هل سيصيبه مكروه؟

نظرا إلى بعضهما وكأنما الضباب سوف يهبط مرّة أخرى. كأنما الواحد منهما قد يضيع للأبد في الطريق.

غادر البيت برفقة غيتاره، سائراً بكبرياء وليس بفخر. سائراً بنبل ونعومة، رغم الأذى وانسحاقه المعزوف على أوتار الغيتار.

جلست في الحافلة وحيدة.

عبرته الحافلةُ ذات لحظة.

ما كان مسموحاً لهما بالتلويح لبعضهما.

برنارد ماك لافرتي
BERNARD MAC LAVERTY

ـ ولدَ برنارد ماك لافرتي في بلفاست ـ ايرلندا .

ـ فازت مجموعته القصصية الأولى «أسرار وقصص أخرى» بجائزة المجلس الاسكتلندي للفنون عام ١٩٧٧ . كما فازت ، كذلك ، روايته «الوديع» عام ١٩٨٠ بنفس الجائزة ، ثم تَمَ تحويلها إلى فيلم سينمائي.

ـ له رواية أخرى بعنوان : «كال CAL» .

ـ أُخِذَتْ هذه القصة من مجوعته «وقت للرقص A Time To Dance» التي طُبعت ثلاث طبعات. الأولى عام ١٩٨٢ ، بينما الثانية والثالثة عام ١٩٨٥ .

. برنارد ماك لافرتي كاتب متفرغ ، ومن الجيل الجديد في بريطانيا حيث يقف مواطنه الايرلندي «إيان ماك ايوان» في مقدمة صفوفه الآن .

أب وإبن

لأن نومي متعذر فانني أسمع أبي يتأهب للذهاب إلى العمل . أعرف بأنه بعد بضع دقائق سوف يدخل لينظر إليّ وأنا نائم . يريد أن يتأكد من أنني عدتُ إلى البيت ليلة البارحة . سيقف على قدميه الحافيتين ، وبيده حذاؤه وجواربه ، ينظر إليّ . سأتناوم . أسمع تكة زر إبريق الماء في الأسفل . يتناهى إليّ بأنه لا يأكل شيئاً ، بينما يجوب أنحاء المطبخ بمعدة ملأى بالهواء . سوف يأتي مرة أخرى لينظر إليّ قبل أن يذهب إلى العمل . إنه يريد أن نتحدث . إنه يصعد الدرجات ، ويقف متنفساً من خلال أنفه ، ومن مرفقه يتدلى صندوق الطعام الفارغ ؛ وينظر إليّ .

هذا هو ابني الذي خذلني . إني أحبه حباً عظيماً ، لكنه لا يكلمني . إنه لا يحدثني بشيء . إنني أسمعه يكبر وينمو وأرى عينيه تضطربان . عندما يراني فإنه يتفلت طارحاً غطاء السرير عند نهوضه .

«استيقظْ يا بني . أنا ذاهب للعمل . أين ستذهب اليوم؟»

«وما شأنك أنت؟»

«إذا عرفت ماذا ستفعل فلن أقلق عليك . »

«هراء.»

أنا لا أنام . ابي لا ينام. أصوات عربات الإسعاف تتقاطع وتشق الظلام. أنام مع إشراقة النهار . هذا أكثر أماناً. في الليل أسمع قدميه الحافيتين وهو يجرهما عبر الردهة. يرتّج الباب الأمامي عند مغادرته.

إبني يحطم قلبي. إنه محطم الآن. أهي غلطتي أن لا امرأة في البيت؟ أهي غلطتي أن تموت المرأة الطيبة؟ لم يكن وجهه قَط أكثر نعومة حين كنت ألمسه بوجهي بعد الحلاقة. طفلٌ يُضغَط إلى خَدي الحليق. ذقنه الآن خشنة. إنه رجل . عندما كان ما يزال ولداً أخذته للصيد. علمته كيف يربط عقدة السنارة . كيف يجهّز الطُعم . كيف يسحب بحيث لا تنجو السمكة. علمته كيف يلعب لعبة السمكة. أذكر الحافلة الخضراء نذهب بها إلى بلدة تووم في الأيام الهادئة. أتذكره وهو يزعجني بالأسئلة. إذا تركته وشأنه فإنه سيحطم قلبي على أي حال. يجب أن أتحدث إليه. الليلة عند تناول الشاي . إذا عاد إلى البيت.

«ينبغي أن تكون نائماً. رجل في مثل عمرك. لقد تجاوزت الواحدة.»

«دعني أُعدُ لكَ الشاي.»

هَزّ الولد كَتفيه بلا مبالاة وجلس. تناول الجريدة ورفعها بينه وبين أبيه.

«ماذا كنتَ تفعل في الخارج حتى هذا الوقت؟»

«ليس ثانيةً!»

«أجبني.»

«نتحدث.»

«مع مَن؟»

«أصدقاء. لم لا تذهب للنوم، يا أبي؟»

«عن ماذا كنتم تتحدثون؟»
«ليست بالأمور المهمة.»
«تكلمْ معي، يا بني.»
«حولَ ماذا؟»

إبني؛ إنه يبدو مشوشاً. أريدك أن تكلمني مثلما أسمعك تُكلّم الناس عند الباب. أريد أن أسمعك تضحك معي مثلما كنت تفعل. أريد أن أعرف بماذا تفكر. أريد أن أعرف لماذا لا تأكل أكثر. ليس أكثر من الفتات خلال أربعة أسابيع. إن وجهك ضامر. أصابعك برتقالية من أثر النيكوتين. جنّبتكَ الموت في إحدى المرات وها أنت الآن لا تكلمني. أريد أن أعرف إن كنتَ في خطر من جديد.

«حول...»
«أنت لم تحلق ذقنك بعد.»
«سأقوم لأحلق الآن. الماء ساخن في الإبريق.»
«لماذا تحلق في الليل؟»
«لأن أصابعي ترتجف في الصباح.»

إن أصابعك ترتجف في الصباح، يا أبي، لأنكَ جبان. أنتَ تعتقد بأن العالم ينتظرك خلف الزاوية ليفجّر رأسك. إفطارٌ مُكوّن من حبتين من الفاليوم، والبقية تستقر في جيبك، وها أنت تهبط الشارع متوجهاً إلى عملك. لاتفتح الباب لأى طارق قبل أن تنظر من نافذة غرفة النوم أولاً. إنه يرتعد من خياله.

إبني؛ أنتَ تعيش في الوقت المسروق. يداك ترتجفان عندما ترجع إلى

البيت. أعطيتك الحياة التي تحياها الآن. أطعمتك الحساء بالملعقة حين كانت يداك ستدلقه. دعني ألف ذراعي على كتفيك ودعني أسمع منك سبب نحولك. سأتكلم معه في نهاية الأسبوع.

من الصعب معرفة إن كان قد نام في سريره. انه دائم الفوضى. لم أرَ ابني لمدة يومين. وفيما بعد، وعبر الراديو، سمعت بأنه مات. أعطوا أوصافه. شربت الحليب. بكيت.

غيرانه عاد في موعد الشاي.

«لماذا لا تخبرني أين تكون؟»

«لأنني لم أعرف يوماً أين أنا.»

ماتت أمي لكن ثمة أخرى حلّتْ محلها. إنها أبي - المرأة العجوز. كان يبكي. أعرف بأنه يصلي من أجلي طوال الوقت. اعتاد أن ينكش الحديقة، وأن يزرع الخضار والورود لنصف الشارع. اعتاد أن يصيد السمك. أن يأخذني للصيد. أما الآن، فانه ينتظر وحسب. يجلس وينتظرني بينما تنمو الأعشاب البرية.

«جعلتكَ تذهب مرة - وانظرْ ماذا حدث.»

«الأسطوانة القديمة إيّاها!»

وزمّ شفتيه كأنه اصطدم بخطّاف سَمَك.

منذ سنتين لم يأت بمبادرة تجاهي. قرأت عن لندن في الجرائد. شاهدت مناظر من لندن عبر نشَرة الأخبار، ناظراً إلى ما وراء كتفي المذيع إلى الناس

يسيرون في الشارع. أنا أعرفكَ، يا بني، فأنت سهل الانجرار والتورط. وبعدها هاتفني طبيب وأنا في العمل. الرجل الذي لم أكلم أحداً في مستواه الممتاز.

«كان عليَّ أن أذهب لألتقطكَ. مثل كلب.»

كان الولد قد رفع الجريدة. قلّبَ الصفحات بصوت مرتفع، وهي تطقطق مثل ألسنة النار.

«كسوةٌ جديدة من محلات ليتل وودز.»

جَوارب، سراويل داخلية، قمصان، الشيء الكثير. جاءني ومعه حقيبته المهنية. قال الطبيب بأنه كان عليه حرق كل ما كنتَ ترتديه. جعلتكَ تقص شعرك الطويل مثل فتاة. كانت بلفاست قبل أن نتكلم. أنت تحمل لطخة انكلترا في صوتكَ.

«فكّرت اليوم بأنك مُت.»

كل يوم تعتقد بأنني مُت. أنت تعيش في ذعر. في ذعر من موتك أنت. تبول خلف الستائر، والراديو مرتفع الصوت على الدوام لإخفاء أي صوت يمكن أن يخيفك، وتحتاط فتقفل الباب مرتين. عندما تظن بأنني لا أراك تُمسك بمعدتك. تخلع ملابسك في العتمة خوفاً من سقوط خيالك على حافة النافذة. وفي الليل تستلقي والوسادة فوق رأسك. وعند سريرك ثمة بلطة صغيرة تتظاهر بأنك نسيت أن تنحيها بعيداً. الفأر يملك شجاعة أكثر منك.

«حسناً. أنا لم أمت.»

«لماذا لا تخبرني أين تذهب؟»

«اسمعْ، يا أبي، أنا لم أتعاطَ الشيء منذ أن عدت. صحيح؟»

«لماذا لا تصادق فتاة مثلما يفعل الآخرون؟»

«هراء.»

كَوّرَ الجريدة ورماها في الزاوية وخطا صاعداً الدرجات إلى غرفته. هتف الرجل العجوز نحو الباب المغلق:

«اذهبْ واغسلْ فمك.»

وبكى ثانية، محدّقاً بالسقف، فسالت دموعه هابطة إلى أذنيه.

إبني؛ مليء بالكراهية. ضدي وضد كل شيء. إنه يرتجف عندما يتحدث. وحين يصرخ يتكسر صوته ويبدو مثل امرأة. يصكّ أسنانه وتتحول بشرته إلى الأبيض حول فمه. ترتجف يداه. كل هذا لأنني سألته أين يذهب. ربما أحتاج إلى أن أظهر له مزيداً من الحب. أن أهتم به أكثر مما أفعل.

صعدتُ الدرجات بخفوت كي أعتذر له. يا بني، أنا آسف. أنا أسأل لأنني أحبك. دعني أحوطكَ بذراعي ونتحادث مثلما اعتدنا أن نفعل في الحافلة في طريق العودة من بلدة توورم. لماذا تجاهد مبتعداً عني.

اهتز الباب مفتوحاً ودسّ بندقية قصيرة تحت الوسادة. بَدَتْ طويلة بما فيه الكفاية، سوداء وقابعة هناك، وكامدة مثل بزّاقة الحديقة. حَدّقَ بي، إبني، بيدين فارغتين، وفي عينيه نظرة كراهية.

«لماذا تتجسس عليّ دائماً، أيها العجوز المزعج الوغد؟»

تكسّرَ صوته، وزاغت عيناه.

«ما هذا؟ تحت وسادتكَ؟»

«ليس هذا من شؤونك اللعينة.»

وركلَ الباب مغلقاً اياه في وجهي بقدمه الحافية.

أنا على الأرض المعتمة. يجب أن أصلي من أجله. على ركبتي سأجثو وأصلي من أجل سلامته. ربما لم أرَ ما رأيت. ربما كنت مخطئاً. أن ابني

يمتطي مقعداً إضافياً فوق الدراجة النارية. لن أنام الليلة. لا أعتقد بأنني سأنام أبداً.

إنها العاشرة. بدأت نشرة الأخبار. أقف مثل امرأة أجففُ أحد الأطباق، وأراقب عناوين الأخبار الرئيسية. رنَّ جرس الباب. خرج الولد ليفتح، وكان طرف قميصه فالتاً عند ظَهره. ثمة أصوات في المدخل.

إبني مع أصدقاء. يتحدثون. الشيء الذي لا يفعله معي.

ثمة صوت طلقة. سقطت فوطة التجفيف من يدي وركضتُ صوب باب المطبخ. نظرت غير مصدق إلى المدخل. هناك رائحة غريبة. إبني مطروح عند الباب، رأسه على الدرجة السفلية، وقدماه فوق العتبة. وصل صوت الأخبار إلى بابي. البيت مفتوح لليل. لا أحد غير الليل. ذهبتُ إليه بيدين رطبتين.

«هل تأذيت؟»

الدم يشخب من أنفه. لقد لكموكَ غير انكَ لم تتأذَ كثيراً. إن أنفك ينزف. ثمة شيء بارد عند مؤخرة رقبتك.

أخذتُ رأسَ ابني الرخو بيدي ورأيتُ ثقباً في أنفه ليس من المفترض أن يكون هناك. عند قاعدة فتحة الأنف.

يا بني، دعني أحوطكَ بذراعي.

هانز بيندر
HANS BENDER (١٩١٩ -)

ولد هانز بيندر عام ١٩١٩ في قرية مول هاوزن بالقرب من هايدلبرغ.

عمل محرراً أدبياً مختصاً بالمراجعات في مجلة (اكزينته)، كما قام بنشر مجموعة من المختارات الشعرية مثل «الشاب ليرك» عام ١٩٥٧، و «شعري هو سكّيني» في العام نفسه، حيث جمع في هذا الكتاب صفوة قصائد الشعراء الألمان محللاً أساليبهم.

نشر مجموعته القصصية الأولى عام ١٩٥٦ تحت عنوان «الذئاب والحمّام» واصفاً جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومُظهراً القلق الكبير اتجاه استعادة النظام الخُلقي الذي زعزعه الحُكم النازي وفظائع حروبه.

بالإضافة إلى ما سبق، قام هانز بيندر بنشر قصائده عام ١٩٥١ في ديوان أسماه «على الغرباء أن يبتعدوا»، ثم أتبعه بروايته «شيء كالحب» عام ١٩٥٤، وروايته الثانية «ثمن الحرية» التي ظهرت عام ١٩٥٩.

يتصف أسلوب بيندر بالاقتصاد والتكثيف عن عَمَد، مستعملاً اللهجة العاميّة، واضعاً نصب عينيه الدقة في المفردات، مبتعداً عن الكلمات البذيئة.

قصة «القربان المقدس» مأخوذة من مجموعته القصصية (مع مدير البريد) المنشورة عام ١٩٦٢ والتي رسم فيها حالة ألمانيّة نموذجية إبّان الفترة التي تلت الحرب العالمية مباشرة - ١٩٤٥. إنها الفترة التي اتسمت بزوال الوهم لدى

الألمان مع سقوط أبطالهم المخادعين! ، وفقدان الأمل عند المشردين والمهاجرين. ويبدو المستقبل - في هذه القصة - لا يحمل إلاّ قِسطاً ضئيلاً من الرجاء للفرد الألماني.

القربان المقدّس

لماذا لم يستطع آخر أن يجدها؟ لماذا كان لا بد من أكون أنا ، الذي يعرف أهميتها ، والذي هرب مسافة بعيدة عن أشياء كهذه؟

كيف كان بامكاني معرفة ما احتوته العلبة الصغيرة؟ لقد خَمّنتُ أن قطعة نقد معدني قد تكون في الداخل. في داخل هذه العلبة التي ، ربما، أضاعتها إحدى البغايا المتمشيات في ذلك الشارع ، إذ سقطت من حقيبتها . فكرت في قيمتها ، توقفت ، تطلعت حولي لأرى إن كان أحداً يراقبني ، انحنيت بسرعة، التقطتها ، ووضعتها في جيبي.

عثرت عليها على بُعد بضعة مئات الياردات من دكّان الورود. كانت الواجهة مُضاءة ولامعة . وكانت سحلبية* خلف جزء منها ، وكاميليا ، ونبات غريب من تلك النباتات التي لا أعرف أسماءها. ومن أمام الواجهة اللامعة أخذتها ، بغير اكتراث ، بصورة عَرَضية مثلما شخص يتناول علبة سجائر. كانت علبة ذهبية . وصليب منقوش عليها ، رفيعاً ، طويلاً ، بذراعيه الأفقيين وقد قطعا نقشاً آخر لسمكة. فتحت العلبة ورأيت القربان المقدس. فيما بعد لو أن أحدهم آمنَ مرة أخرى بأن المسيح كان في داخل هذا** . . . .

---

* السحلبية : نبتة من الفصيلة السحلبية (المورد) .

** يرمز المسيحيون بالقربان المقدس على انه دم المسيح وجسده. (المترجم) .

شعرت بالخوف ، أغلقت العلبة ، وأبقيتها في يدي لأنني لم أجرؤ على إعادتها إلى جيبي . فلقد بدت وكأن مجاورتها لولاعة ، ومفاتيح ، ومنديل قذر ، تجميع غير صحيح . كنت أعلم أن الكهنة يحملون هذه العلب فوق صدورهم ، في كيس حريري ، وقد عُلقَتْ بطرف حبل من القيطان الأرجواني . كان لي جيب خارجي على يسارَ سترتي الحائلة ـ بجانب القلب ، تفكرت ؛ هنا المكان الذي أردت أن أضعها فيها .

ظهر وجه الرجل من خلال الورود والنباتات ، ومن خلف الواجهة الزجاجية . على عينيه نظّارة بعدسات عاكسة للضوء إلى نصف أقمار حادة . وصلتْ ذراعه عبر أوراق النبتة ، في يده مقص ، ثم قطع وردة كاميليا من أرومتها . سقطت الوردة ناحية الواجهة حيث كنت أقف . تلمست يدهُ طريقها إليها . ركضتُ بعيداً .

أردت في الحقيقة أن أسير إلى اليمين حيث يؤدي الشارع إلى المحطة . لكنني ذهبت يساراً ، وبلا تفكير مسبق ، لأنني ببساطة اعتدت هنا على الالتفات يساراً . ولأنني شعرت بألفة في هذا الشارع . كان شارعاً مقبضاً . . مقبضاً مثلما هو العالم . على اليمين كانت هناك أربعة أو خمسة بيوت بدكاكين . محل لعصير الفاكهة . وحانة في الطابق الثاني . وبعد هذا يمتد دمار بفعل القنابل حتى نهاية الشارع . هذا ولقد انقطعت الرتابة بواسطة كشك ارتفع وسط دبش الحجارة المهشمة . إعتادت أليزا ، مالكة الكشك ، قضاء الليل هناك . وهي ستفتح لك بمجرد قرعك ثلاثاً .

لا يمكنني الذهاب إلى هناك الآن ، فبحوزتي القربان المقدس . وعليّ البحث عن كنيسة فيها كاهن وإعادة العلبة بالقربان وتسليمها له .

ولكن ، أين توجد كنيسة؟ لا أعرف حتى واحدة . لقد عشت في هذه البلدة أربع سنوات ، ولكنني لم أتعرف على كنيسة واحدة . كنت أسيرُ حرب ، ولم أعثر على أحد من أقربائي عندما رجعت . ولهذا ، ما هَمني أين

أقيم . فالبلدة أفضل من قرية على أي حال . إن مليون مقيم مثل مليون احتمال ، فكرت . وبالنسبة لرجل شاب غير مهم ، فإن احتمالات الحصول على المال كانت جد قليلة . الصعوبة الوحيدة كانت العثور على غرفة في هذه البلدة . بحثت لمدة ثلاثة أشهر . توفّر لي مأوى ليلياً ، في غرفة معيشة ، حيث ينام رجل آخر . فكرتُ بالمكوث هناك على نحو مؤقت . وها أنا ، حتى اليوم ، أقيم فيها . ربما بسبب من هذه المآوي المؤقتة انني أمضيت أربع سنوات في بلدة ولم أتعرف مكان كنيسة فيها ، إذ كنت أقضي الليالي متسكعاً بين الحانات والمقاهي . يمكنك أن تنام هناك ولكنك لا تقدر أن تجلس بسلام . تقرأ كتاباً أو تتعلم لغة أجنبية . لقد نام «فاسنسكي» ، شريكي في الغرفة ، على الأريكة ـ سريري المؤلف من اطار رفّاس وثلاث حشيات بالية ؛ وكان بدوره دائم الخروج في الليل . عاد في الصباح ، دخّنَ سيجارة ، استدار إلى الجدار وغطّ في النوم . عندما احتجت توقفت أطلب المساعدة فأغاثني بالسجائر والنقود . وفي أحد المساءات أخذني معه . ومنذ ذلك الوقت صرنا نعود في الموعد نفسه .

كنت أفكر به عندما وجدته واقفاً خارج كشك «أليزا» ، مكشراً :

«كنت أنتظر» ، قال .

«لماذا؟»

«هذا ما ستعرفه في الوقت المناسب . أريد أن آكل أولاً . أتدخل؟»

«ولمَ لا . . » ، قلت .

عليّ أن لا أخون نفسي . طرَق «فاسنسكي» ثلاثاً على الساتر الخشبي ، وبعدها سمعنا صوت «أليزا» يقول بخفوت : «لقد أغلقنا للتو . »

«لا تكوني سخيفة» ، قال فاسنسكي .

«أوه ، إنّه أنت!» ، نادت أليزا . أدارت المفتاح . فتحت الباب وضحكت .

في الزاوية كان الرومانيان أو الهنغاريان . لا يستطيع المرء تحديد من أين

هما . إنّهما يعرفان فاسينسكي ويعرفانني ، ولكنهما لم يعطيانا اليوم أي اهتمام ؛ إذ استرسلا يثرثران بلغتهما الغريبة البغيضة . وزادت «أليزا» بصراخها ، ثم وخزتْ « جانوس» ، الرجل الأصغر ، في خاصرته .

«ستأتي الشرطة إن استمريتم بهكذا شجار . »

«اثنتان» ، أمر فاسنسكي . ثم موجهاً حديثه إليّ : «هل تأخذ شيئاً ، أنت أيضاً؟»

قلت : «لست جائعاً للحق . على أي حال ، فأنا لا أملك كفايتي من النقود . »

«الكفاية من النقود ! الكفاية من النقود! فلقد أعطيت «السيدة «روسير» حصيلة الليلة الفائتة . ودفعت من أجل الغسيل لأنني ما عدت أطيق وجهها دائم التأنيب . ولأنني شعرت بحلول الوقت الذي ينبغي أن أرتدي فيه قميصاً نظيفاً . كنت أملك قطع الأربعة أعشار «البنفنغ»* في جيبي والعلبة ـ بالطبع . وفيما لو أردت بيعها يمكنني ذلك ، لأنّ هذان الوغدان يسيران على هذا الخط من العمل . فجيوبهما طافحة بالساعات ، والخواتم ، والمجوهرات . كما أنّ محفظتيهما محشوتان بالملاحظات . إنهما ينقضّان على أيّ شيء يلمع ، تماماً مثل العقعق** .

دفعتْ «أليزا» عبر الحاجز بالسجق التي كانت تتمدّد ساخنة على الصحاف ، مع شريحة خبز ، و«الماسترد» الشهي .

«هاكم أيها الأولاد» ، قالت .

فدفع فاسنسكي بقطعتي سجق إلى فمه على الفور . وأخذ يناقشني .

«حسناً ، لستَ جائعاً؟» سأل .

---

* البنفنغ : جزء من مئة من المارك الألماني . (المورد) .

** العقعق : غراب أبقع طويل الذيل . (المورد) .

«نعم.»

إن كانت مسألة النقود، فيمكنك أن تأتي الآن.»

«لا، لا أستطيع.»

«ولمَ لا؟»

«لا، فعلاً! ليس الآن على أي حال؛ ليس اللحظة.»

«حسناً»، قال فاسنسكي، «يمكنك أن تأتي فيما بعد. لنقل.. الحادية عشرة. الساعة الحادية عشرة بالقرب من التاكسيات، موافق؟»

«حسناً. الساعة الحادية عشرة بالقرب من التاكسيات.»

وعضضتُ على قطعتي الثانية من السجق. أجال فاسنسكي النظر فيّ من رأسي إلى قدمي.

تحسستُ جيب سترتي، فكانت العلبة في مكانها، وظهرت حوافها واضحة في ثنايا الجيب. «اتفقنا إذن، الحادية عشرة قرب التاكسيات»، قال، وخرج.

كان الرومانيان أو الهنغاريان ما زالا يثرثران. لملمتْ «أليزا» الصحاف ورمتها أسفل الحاجز. قلت: «دعيني آخذ بعض السجائر. أريد أربعاً منها. أيمكنك منحي أكثر.»

«أنت حظٌ عاثر»، احتجتْ ثانية، وعَدَّتْ أربع سجائر من الصندوق. كنت أحاول كسب الوقت. دقيقتان، ثلاث دقائق، حتى يتوارى فاسنسكي.

انبعثت أصوات الجاز من الحانة المجاورة. وقفت «بريجيت» على المدخل. صغيرة، هَشّة هي «بريجيت»، وأنا دائم الشعور حيالها بالأسى عندما أراها مع أحد الأميركيين. لم أكن أمانع في رؤية المزيد منها. ولكنها لم تأخذني مأخذ الجد. ها هي الآن وحيدة هناك. مشيت وعبرتها. تعمدتُ أن لا أراها. هَتَفَت:

«هاي. أنتَ هناك! هاي!» مرتان، ثلاث مرات. تابعتُ وكأنني لم

أسمع . اقتربت تقطعات عقبي قدميها على الرصيف أكثر ، ثم وصلتني . قبضت عليّ من ذراعي ودفعتني بكل عزمها :

«ألم تعد تسمع؟»

تظاهرت بالمفاجأة : «بريجيت ، كيف حالك؟»

«شكراً ، إنني في حالة الانتظار ثانية» ، قالت .

«وهل هنالك ما يستحق ذلك؟»

«هذا ما سنراه بعدئذ . صعد «وليم» للطابق الثاني لتوه . لقد أضعت علبة تجميلي في مكان ما ، لكني لا أتذكر أين . هذا هو المكان الثالث الذي نحاول فيه . وإذا لم تكن هنا فلن تكون في مكان آخر أبداً . »

«أنت لا تحتاجين علبة تجميل ومساحيق . »

«أهي مجاملة؟»

«يمكن . »

«أتعرف» قالت فجأة «ستصعد معي . سنرقص . وأثناء وجودنا هناك يمكنني أن أبحث وأرى إن كان وليم . »

«آسف ، لا أستطيع . لا وقت عندي . إن فاسنسكي ينتظر . »

«أوه ، هو ثانية . »

وجذبتني من يدي إلى المدخل ، وصعدنا على الدرج الخشبي القذر . كان الطابق مكتظاً بالراقصين ، والجميع في تلاصق حميم . وكانت الفرقة تعزف لحناً بايقاع سريع : بوجي-بوجي .

«أوه ، بوجي!» أوضحت بريجيت .

«نعم ، بوجي ، » وشعرت باندفاعي مع الايقاع . إن الرقص ، أحياناً ، يوّفر لي وجبة . في تلك المساءات حين يقفر المكان ، يسمح لي صاحب الحانة بالشراب على حساب المحل ، مع قطعة لحم من كفل بقرة في المطبخ بعد منتصف الليل ، على أن أبقى وأراقص الفتيات . لقد راقصتُ نسوةً لا يعنين لي

شيئاً ليال بطولها . والآن أنا أراقص بريجيت . لقد نسيت القربان المقدس . إنكَ لتنسىً أشياء كثيرة عندما ترقص . كما أن بريجيت ترقص جيداً . ووجهها يتوهج . جذبتها إليّ أكثر .

«ماذا تحمل معك هنا؟»

«أين؟ ماذا؟»

ودنت يدها من جيب سترتي : هنا .

«لا شيء!»

«أعطني إيّاها ، أيها الوغد .»

«ما بك ، بريجيت ، أنا لا أعرف ماذا . . .» .

«إنهاَ علبة تجميلي ، أيها الوغد ، أيها الوغد الحقير!»

أرادت أن تنفذ إلى الجيب ، فانقلب خارجاً . دفعتها عني واندفعت نحو الباب . ولولتْ بريجيت : «أوقفوه . لص ، لص!»

وارتموا عليّ . هؤلاء السادة والمختلسين بقمصانهم الحريرية ، وجواربهم الملوّنة ، وسراويلهم الطحينية اللون . كم كانوا متوحشين! رفسوني في خاصرتي ، وضربوني على وجهي . دافعتُ عن نفسي بقدر ما أملك من قوة دون أن أسحب يدي اليسرى من جيب سترتي . كان هناك اثنان أخذا على نفسيهما مساعدتي، وبعدها انضم اليهما فاسنسكي . وأخذنا نقاتل من أجل الخروج .

وفي الشارع سأل فاسنسكي : «ماذا كان هناك؟»

«غيرة» ، قلت ، «محض غيرة .»

«أنت معتوه .»

«معتوه لعين .»

«أتعرف ما هو الوقت؟»

«ليست لدي فكرة .»

«إنها الحادية عشرة . أخبرتك بأن تتواجد هناك ، أتذكر؟»
«ولكنني قلت لكَ. . . »
«عليكَ أن تحسم أمرك : إما ذاك النوع من المومسات ، أو العمل . »
«حسناً ، أنا قادم . »
وسرنا نزولاً إلى الجهة اليمنى من الطريق نحو ملتقى سائقي التاكسيات . كانت عرباتهم تنتظر في الخارج ، وكانوا بمعاطفهم الواقية من المطر ، وستراتهم الجلدية يجلسون في الداخل . كان وجه «بلاشكي» الملوث بالشحم وراء الحاجز . وعلى إحدى الطاولات بالقرب من الستائر المرسومة جلس «بشورن» و«كيرمر . »
قال بشورن : «حسناً، حسناً، ها قد ظهرا أخيراً . »
قال كيرمر : «آه ، السيدان المهذبان!»
قال ريتشارد : «ولكن هناك دم على وجهكَ . »
قلت : حادث عَرَضي بسيط . إمرأة ، أنت تعرف .
بدا أن لكلامي منطقاً عندهم . جلسنا ودفع ريتشارد بعلبة سجائره من نوع لاكي سترايكس على الطاولة . التصق بشورن بفاسنسكي وهمس في أذنه .
كان السواقون يتسمون بالمرح . وكان من بينهم مَن يطلقون عليه لقب «لوهيغرين»، وهو مغني أوبرا قديم فاشل . ففي الوقت الذي يثمل فيه يتذكر أمجاده السالفة . يرفع كأسه عالياً ويغني بطبقة صوت مرتفعة متفككة : «في بلاد بعيدة جداً ، يتعذر بلوغها على الرجال ، هناك قصر ، اسمه مونسالفات» . وللحق أن غناءه ليس رديئاً ، ولا يملك المرء إلاّ أن يشعر بروحيته بغض النظر عن محبته له أو عدمها . تتوقف الأصوات ، ثم يشير إليه الزملاء بابهاماتهم مخبرين الغرباء من الزبائن : «الوهينغرين!» . إنه لا يغنّي أكثر من هذه الجملة . يتوقف عندها ، ثم يسفح من كأسه . وعادة يحدث أن

أحدهم ينادي عليه قائلاً: «لماذا لا تغني شيئاً جميلاً! لحناً حديثاً!» . عندها ينفخ أوداجه ، يفرغ الهواء ويقول : باه ، أنتَ والحانكَ الساقطة السوقية . لو - هين - غرين! أتعرف ماذا يعني هذا؟ لقد غنّيتُ الـ : لو - هين - غرين في زيوريخ ، والبفرلد، وميونيخ ، وكيل! . . ثم يغيب ثانية في الغناء : «في بلاد بعيدة جداً -» .

«انصتْ هنا أيها الرجل!» لكزني فاسنسكي . قال بوشرن : «أنتما الإثنان تحملان البضاعة وتأخذانها إلى شارع البرشت . وهذا كل ما عليكما عمله . وزّعاها إلى ربطة دزينات صغيرة ؛ وهذا يعني أنكما ستذهبان ست مرات . إذا نجحت العملية ، فسنكررها غداً . أفهمتما؟»

«نعم» ، قال فاسنسكي .

«وماذا عنكَ أنت؟» ، سألني .

«نعم» ، قلت ، رغم أن لا فكرة لديّ عن محتوى الربطات التي سنحملها . طلب فاسنسكي كأسين من البيرة . جرعناها وغادرنا المكان . وعندما وقفنا على مدخل الباب في الخارج ، كانت خمس أو ست عربات تتجه نزولاً إلى الشارع من المحطة . كنت تلك عربات دورية الشرطة العسكرية البيضاء كالحليب . انفصلّ فاسنسكي عني كانفصال الخيط عن النسيج . قذف بنفسه إلى الوراء ، وقال : أهرب ! واختفى . ركضت بدوري في الاتجاه المعاكس بقدر ما أملك من سرعة . أخذ فاسنسكي اتجاه المنطقة المُدَمرَة . أما أنا فإلى الشارع . لم أقم بعملية التفاف . فقط وجدت نفسي أركض . وضعت يدي في جيبي الأمامية وتحسستُ العلبة . ركضت من أجل حريتي . ركضت من أجل إنقاذ القربان المقدس .

تقفوا أثري . زعقت صفارة الانذار . انقسم الشارع إلى التوائين في وسطهما كنيسة ، بجدران عالية بنيّة وفتحة سوداء لرواق . فزعتُ قاطعاً الطريق ولكنني كدت أشعر بمقدمة العربة عند ظهري . فررت ونجوت مختبئاً في داخل الرواق .

كانت الكنيسة في حالة دمار تام. أربعة جدران ومن فوقها فضاء الليل. تعثرت على الأحجار، ارتطمت بكتل من الخشب وبأنصبة تذكارية، وسقطت في خندق. تقاطعت أضواء مصابيحهم الكهربائية من فوقي. صرختْ أصوات: «قف مكانك ولا تتحرك! قف مكانك!». وتردد الصدى. جرحت ذقني. سال الدم أسفل عنقي داخل ياقتي المفتوحة. وبسرعة تناولت العلبة من جيبي ودسستها تحت حجر. وبعدها استسلمت لهم.

دفعوني وحشروني في واحدة من عرباتهم. ثم ساقوا عائدين إلى مركز تجمع سائقي التاكسيات المُحاط بالشرطة. كان هناك حشد من الناس أعرف بعضهم من وجوههم. بشورن، كيرمر، ريتشارد، ولكن فاسنسكي لم يكن بينهم. ساقونا إلى مركز الشرطة رقم ١٤ حيث بدأ التحقيق. استجواب ممل وغير ممتع أبداً. كان رجال الشرطة يشربون القهوة من فناجين من الصيني الغليظ. فضّوا لفائف وبسطوا سجق الكبد عليها.

إذا خرجت من هذا الوضع، تفكرت، سأنهي هذا النمط من العيش وأبدأ من جديد. ولكنني علمت أيضاً أن خُلاصات كهذه لا تدوم طويلاً.

خرجتُ ونجوت. لماذا، لا أدري. إثر أسئلتهم وإجاباتي لم أكن أتوقع الإفراج عني. «يمكنك أن تذهب»، قال مسؤول الشرطة.

أردت أن أسأله: «أين؟»، ولكنني لم أفعل، بل توجهت بسرعة إلى الباب. ظل الآخرون على صمتهم إلا ريتشارد الذي هتف ورائي: «حظاً أفضل!».

«ولكَ أيضاً.»

غادرت المبنى، نزلت على الدرجات، ثم ذهبت في الشارع. كان صباح الأحد، والقليل من العربات في المكان. وكانت الترامات خاوية تقريباً. السماء زرقاء، صافية، وباردة. بمستطاعي أن أغتسل وأن أحلق ذقني. كما أن حذائي يحتاج إلى تنظيف. ولكنني لم أرغب بالعودة إلى

المأوى . عَليّ أن أجد الكنيسة أولاً . سِرت إلى شارع فلورن الذي أعرف كيف أستدل منه على الطريق .

اجتزت تجمع سائقي التاكسيات . هناك يوجد التقاطع والكنيسة . وبمقدور المرء في وضح النهار أن يرى مباشرة أن الكنيسة مُدَمرَة . استخرجت العلبة من بين الأنقاض . ثم تسلقت ثانية وأكملت سيري بمحاذاة الكنيسة إلى جزء من البلدة لم أكن فيه من قبل . أقبلت عَليّ امرأة ارتدت السواد ، وبيدها عصا ، وبرفقتها كلب صغير القوائم عريض الوجه طويل الشعر ناعمهُ . سألت عن أقرب كنيسة لم تُدمَر .

«إذن فأنتَ لا تعلم أن كنيسة القديس جون قد دمرتها القنابل؟»

«لا ، لا أعلم . »

«إذن أنتَ غريب هنا . »

«نعم ، أنا غريب . »

«ووصلتَ للتو؟»

«نعم ، للتو . »

تفحصتني بالكامل ثم قالت : «أنظرْ ، اذهبْ ببساطة على طول هذا الشارع ، وخُذ المنعطف الرابع على اليمين ثم بعد ذلك ـ ماذا تفعل ، فيفي ؟ ـ مئتا متر أخرى وبعدها ستكون أمامك ـ فيفي ، تعال هنا !»

قلت «شكراً» كي أضع حداً لأي استفسار . انفصلتْ عني وقالت : «لا يمكن أن تضيّعها . يمكن رؤية الكنيسة من مسافة بعيدة . إنها كنيسة قلب يسوع الأكثر قداسة . »

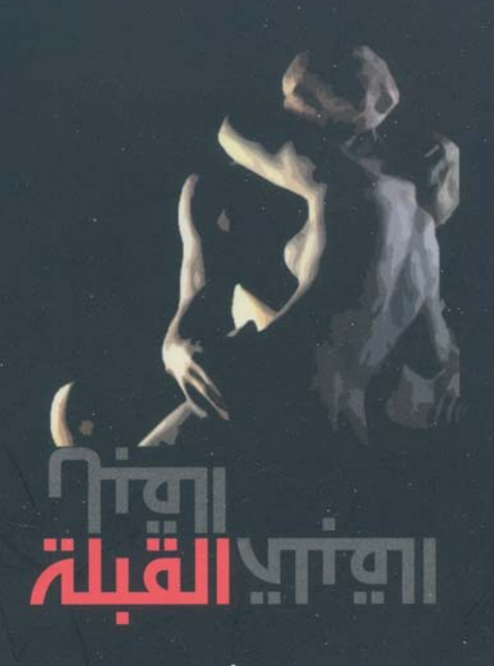
تمحورّ فمُها إلى أنبوب عندما كانت تتكلم . تابعتُ سيري بسرعة . على اليمين وعلى اليسار كانت ڤيلات بحدائق أمامية . بوابات الأسيجة مطليّة بالمينا والنحاس الأصفر . أسماء مدراء وضباط أميركيون . ملاحظات : احذرْ الكلب .

ها هو المنعطف الرابع . استدرت مع المنحنى ورأيت الكنيسة . كانت واجهتها الضخمة قد سَدَّت الشارع .

وفي حال ارتقائي للدرجات فُتحَت أبواب الكنيسة . عزف الأرغن ترتيلة ما ، وهذا ما أوحى لي إنه إشارة تقود الناس الذين في الداخل إلى الخارج . ثم انبثق موكب . في الأمام : فتيات بلباس أبيض وشعر طويل . غابت الأيدي في سَلات صغيرة ثم نثرت تويجات الورد وزهرات المارجريت وحبّات الأقحوان . ثم تبع الفتيات أولاد بثياب زرقاء ، وقد التفت ياقات قمصانهم المفتوحة خارجاً، بينما خَطُّ الفَرْق في شعورهم المضمخة بالماء بانَ واضحاً . وبعدئذ سارت جمهرة من الراهبات برؤوسهن المنحنية . مجموعة رهبان . وبعدها المُرتّلون ، ر جال ونساء ، يضمون أصواتهم المنغمة إلى لحن الأرغن . ثم خدم الكنيسة بأردية حمراء ووزر كتّانية زُركشَت بأشرطة حيث ـ كما فعلتُ مرة ـ تتأرجح أوان ذهبية تبتعث غيوماً من بخور . والآن ثمة ظلّة عبأت الرواق . الحرير تم تطريزه بأحجار كريمة بينما ارتفعت به الريح وبَالغت في انتفاخه . في الأسفل ، كان ثلاثة كهنة يسيرون ، وأوسطهم يحمل وعاء القربان المقدس . وفي رزمة من أشعة ذهبية وُضِعَ في نصف قمر فضي ـ كان القربان المقدس .

وبالرغم من إرادتي خشعت راكعاً . عبرني الموكب . كانوا يرتّلون . يصلّون . يتمتمون . تخطتني أحذية ، تدافعت مناكب ، معاطف وسترات تنبعث منها رائحة نفتالين عثة الملابس تمسحت بي ومضت .

كرهتُ هذا الموكب . هؤلاء الذين عبروا كانوا غرباء عليّ . كانوا في غاية الهدوء ، وكنت أنا في غاية الاضطراب . لم يعنوا لي شيئاً بترنيماتهم ، بهيئتهم الفاقدة للاستقامة والأمانة ، وبتقواهم المدروس . غادرت المكان مثلما غادرت محطة الشرطة ، كي أكون لوحدي . ولكن ، أحقاً كنت وحدي؟ أنا أملك القربان المقدس . أخذته معي بعيداً في حياتي القلقة .



ديلان توماس أنجيلا كارتر

ريموند كارفر أنابيس نن

نادين غورديمر برنارد ماك لافرتي

هانز بندر

أزمنة

info@azminah.com/ P.O.Box 950252 Amman 11195 Jordan